



دراسات سيكولوجية

سلامة موسى

دراسات سيكلوجية

تأليف
سلامة موسى



الناشر مؤسسة هنداوي

الشهادة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

بورك هاوس، شبيت سرتريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تلفون: + ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي

الترقيم الدولي: ٨ ٠٢٦٤ ١ ٥٢٧٣ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٦.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: تَسْبُبُ المُصَنَّفَ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بـ بـ بـ العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	العواطف المضغوطة والسلوك الشاذ
١١	المرضى الذين يعلموننا
١٧	النفس السليمة في المجتمع السليم
٢١	هذا العلم الجديد
٢٧	مرضى النفس وعلاجهم
٣٣	نحن نفكر بأفواهنا
٣٧	اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية
٤٣	الكتب العظيمة التي تربينا
٤٧	كيف تتعلم العبرية
٥٣	الإيمان بالأرواح مرض
٥٧	سيكلوجية الصحافة
٦١	الاستقلال هو الشرط الأول للشخصية
٦٥	السعادة هي أن تمارس الحياة
٦٩	لا تكن في حرب باردة مع نفسك
٧٥	النعم المقيم
٨١	سيكلوجية الشيخوخة
٨٥	سيكلوجية الشيخوخة أيضًا
٩١	حياتهم تافهة

٩٧

أوديب صبياً

١٠٣

الخمر والمخدرات الأخرى

١٠٩

كيف نتعلم السعادة

١١٣

الرقص

العواطف المضغوطة والسلوك الشاذ

عندما يقول أحدهنا إنه درس فرويد فإنه لا يعني بذلك أنه يسلم بكل ما قاله وزعمه عن النفس البشرية. كما أنَّ من درسوا داروين أو آينشتين أو سارتر أو هيجل لا يسلِّمون بكل ما قاله هؤلاء؛ إذ ليس الدرس حفظاً «عن ظهر قلب»، ولن يستوي السيكولوجية رقية تتلوها على المريض فيُشفى، وإنما هي تقليل للفكرة أو الفكريات ومناقشتها، بل قد يكون الدرس بالانعطف بها إلى وجهات أخرى غير وجهتها الأصلية.

بل أزيد على ذلك وأقول إننا ننتفع أحياناً بالخطأ كما ننتفع بالإصابة عند المفكر العظيم. وقد سبق لي أن قلت مثل هذا القول عن فرويد. وأخطاء فرويد — أو ما يزعم البعض أنها أخطاء — قد بعثت مئات المفكرين في أنحاء العالم المتعدد على بحث النفس البشرية، يوافقون فيها فرويد أو يخالفونه أو ينافقونه، ولكنهم في كل ذلك يبحثون. وهذا عظمة هذا المفكر الذي شرع قبل ستين سنة يتتساءل: لم يسلك زيد هذا السلوك الشاذ ويسلك عمرو هذا السلوك السوي؟

ثم يجيب بأنَّ علة ذلك ترجع إلى أيام الطفولة. وصحيح أنه شرح العوامل في هذه الطفولة بما يدعو إلى مناقشة فروضه ونظرياته، ولكنه عَيْن حدود المسألة وطالينا بالحل إذا لم نقبل حله هو الذي وضعه.

وماذا نقول في رجل يبدأ بحوثه بقوله إنَّ لكل اتجاه أو حركة أو سلوك علة؟ وإننا إذا كنا نجد رجلاً مستقيماً وآخر شاذًا، ثم رجلاً صالحاً وآخر مجرماً، ثم امرأة مستهترة وأخرى متحفظة، فإننا يجب أن نبحث عن العلة في هذه الحالات: هل هي في العائلة، في المجتمع، في الوراثة، في الوسط؟

لقد قال هو إنها في العائلة، في علاقة الطفل بأبويه في السنوات الأولى من العمر.

ونستطيع أن نخالفه هنا، ولكننا لا نستطيع أن نخرج بذلك من المشكلة وهي: لماذا يختلف الناس في سلوكهم؟

وهذا السؤال هو سؤاله، وهو في صميم السينولوجية التي تبحث «النفس» في ارتفاعها وانخفاضها، وسلامتها ومرضها، واستقامتها وانحرافها.

وكلمات «النفس» و«العقل الباطن» و«مركب النقص» و«النرجسية» و«مركب أوديب» هي كلمات مؤقتة تحمل كثيراً من الشبهات، وعندما يتقدم العلم السينولوجي يستطيع أن يضع المفردات العلمية الدقيقة لهذه الكلمات المؤقتة. وكثير من المناقشات والاختلافات يرجع إلى الشكوك التي تحيط بهذه الكلمات وغيرها؛ لأنها غير محددة المعاني. وأحب أن أصف مؤلفات فرويد بأنها فلسفية، بل هي أحياناً فن أكثر مما هي علم؛ ذلك أنني أحس أنها أثارت بصيرتي أو زادتها وحفزتني على الدرس، وإن يكن هذا الدرس يختلف بل ينحرف عن اتجاهات فرويد، وربما يكون خير وصف لأفكار فرويد أنها خمائر.

ويكفي أن نلخص أفكار فرويد أو نظرياته أو فرضه فيما يلي:

(١) الفكرة الأولى أن علاقة الطفل بوالديه، منذ يولد، إلى السنة الثانية من العمر تعين له مركباً؛ أي عقدة نفسية، تتالف من استجاباتها ورجوعها أخلاقه وتصرفاته سائر عمره ولو بلغ السبعين أو الثمانين من العمر. وهذا المركب يُسمى «مركب أوديب».

وفرويد يصف هذا المركب بأنه علاقة عشقية جنسية بين الطفل وأمه. وهذا العشق يُحدث غيرة بينه وبين أبيه، ثم ينشأ صراع في نفسه بعد ذلك بين حبه وغيره تكون منه بذرة الأخلاق التي تنمو في اتجاهات معينة وفق السنة الأولى من عمره.

وإذا كانا نشئن من هذا التفسير، فإنه ليس بيتنا من ينكر أن في الطفل نبضات وإحساسات جنسية غامضة تعم جسمه كله، بل هذه النبضات تبقى طيلة أعمارنا وإن كانت الحدة فيها تتحيز أجزاء معينة عندما نكبر ونراهن.

وأختلفنا مع فرويد هنا ليس بشأن الإنكار لهذه الإحساسات الجنسية في الأطفال وإنما بشأن الخطورة التي يعلقها في مستقبل الأخلاق بشأن هذه العلاقة بين الطفل وأمه وأبيه. وعندى أنه يسرف في المبالغة في قيمة هذه العلاقة، وأنه يصف هذه الإحساسات بأنها «حب جنسي» مع أنها لا تزيد على إحساس المراهق بلدة الاحتكاك بيده في «العادة السرية»؛ أي إنها إحساس فقط، بل إن هذه العادة تعود إلى هذا الإحساس الطفلي القديم. ولكنه هنا – أي فرويد – عندما وضعنا موضع التأمل لهذه العلاقة حملنا على أن نبحث موقف الأطفال في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من أعمارهم، فانحرفنا عن

الطريق الذي اتبعه هو في التفسير، ولكننا هبطننا على عالم كبير في معانٍ التربية والأخلاق. وبذلك أخذب فرويد تفكيرنا حتى ونحن نخالفه، ونتيجة ذلك أننا نقول الآن: «إن أخلاقنا وميولنا واتجاهاتنا وأطماءنا هي ثمرة ما انغرس في نفوسنا مدة السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من أعمارنا».

(٢) وال فكرة الثانية أن أحلامنا هي أفكارنا الحرة، تبدو لنا في رموز تحتاج إلى التفسير حتى نعرف بها أعمق نفوسنا الخافية علينا. فقد يعتقد أحدهنا أنه رجل صالح ولكنه في أحلامه، التي لا تحتاج إلى صعوبة كبيرة في التفسير، يثبت أن له نزعات إجرامية خطيرة، وأنه يوشك أن يرتكبها ويحتاج إلى التحذير والنصائح.

(٣) وال فكرة الثالثة التي تعلمناها من فرويد هي «العقل الباطن»، وهي كلمة سيئة وأسوأ منها «اللاشعور» و«اللاوعي».

ومرجع العقل الباطن أننا نكره استذكار ما يؤلمنا أو يخزيانا. ألسنا نقول لأحد الأصدقاء عندما يحدثنا عن شخص نكرهه: «دعنا من هذه السيرة، لعنة الله عليه!» والمعنى هنا أننا لا نطيق ذكر الأشياء أو الناس الذين نكرههم وعندئذ نحن ننساهم أو نكرّم سيرتهم أو نضغطها حتى لا ترتفع إلى عيننا، فنتألم، ولكننا بهذا العمل لا نمحو الذكرى؛ إذ هي تبقى مخفية في «العقل الباطن». فإذا حدث لنا حادث مشابه لحادث قد ضغطناه أو كظمناه (أي نسيناه) قبل عشرين أو ثلاثين سنة، فإن عواطف الغضب، أو الخوف، أو الاشمئزاز، أو الخزي، تعود إليها قوية دينامية، فتعين سلوكنا واتجاهاتنا. نسينا الحادث البغيض وبقيت العاطفة التي كانت تلابسه مختبئة فيما نسميه «العقل الباطن».

والأحلام تفرج عنا بعض التفريح برموز تحتاج إلى التفسير، ولكن هذه العواطف المكظومة، المضغوطة، المنسيّة، في العقل الباطن، كثيراً ما تحفزنا إلى سلوك شاذ إجرامي كما ترى في المثال التالي: عمد بعض السيكولوجيين في إنجلترا إلى تحليل وتنويم بعض المجرمين الذين ارتكبوا جريمة القتل العمد، فوجدوا أنهم جمِيعاً تقريباً عندما ينومون ثم يُستجوبون يردون على الأسئلة التي توجه إليهم بشأن الأسباب لارتكاب جريمتهم بذكر أسماء أخرى غير أسماء الأشخاص الذين قتلواهم. وعند البحث عن أسماء هؤلاء الأشخاص نجد أنهم كانوا خصومهم أيام الطفولة.

هنا البذرة الخصبة التي زرعها فرويد.

البيئة الأولى للعائلة هي كل شيء في الأخلاق تقريباً.

وكان المجرم الذي قتل زيداً وهو في سن الأربعين أو الخمسين إنما كان يقتل رمزاً، وكان هذا الخصم قد أحدث انفعالاً عميقاً كظم في نفسه، وهو طفل، ثم جاءت المناسبة أو المشابهة للموقف القديم، فحدث الانتقام بقتل شخص آخر.

(٤) وال فكرة الرابعة التي تعلمناها من فرويد هي «فن» التحليل. والتحليل هو إيجاد حالة نضع الشخص فيها بحيث يسترخي كأنه في نوم ويفكر فيها كأنه في حلم، وعندئذ يبوح ويستسلم للانفعالات التي كمنت وتعافت في نفسه منذ عشرين أو ثلاثين سنة، كمنت لأنه كان يضغطها وينسها.

وهو حين يبوح يرتاح فيذهب عنه التوتر والكره اللذان لم يكن يعرف سببهما. ثم هو يعرف مرجع التوتر والكره فيشفى منها؛ لأنه يتعقل ويقول: «ما دام السبب لهما قد زال فإني يجب أن أرتاح وأتخلص منها». هذه هي الفكرات الأربع الخصبة في فرويد. وقد تفرعت منها عشرات الفكرات الأخرى كان فضل فرويد فيها الإيحاء والتلميح.

وميزة فرويد في جميع أبحاثه أنه جريء ومخلص، فمته حظاً على فكرة فإنه لا يبالي أن يقول بها ويشرحها ولو خالفت مألف الناس، وخاصة العامة من «العلماء» الذين يحتضنون الخرافات فيما خرج عن العلم الذي يدرسوه، ثم قد يدعوه إخلاصه إلى أن ينكر بعض أقواله كما فعل في «الرغبة في الموت» التي ظن أنها حقيقة استخلصها من التحليل النفسي لبعض المرضى، ثم عاد فأنكرها. إن الذين عاصروا فرويد ودرسوه يحسون أن وجودهم ووعيهم قد زاد في الدنيا.

المرضى الذين يعلموانا

قرأت كتاباً هذا الأسبوع بعنوان «عاهات العبرية» لمؤلفه الدكتور بيت، بعندي على التأمل ثم التفكير.

فقد تناول المؤلف – هو طبيب – خمسة عشر مؤلفاً عبقرياً من الإنجليز والفرنسيين، ثم نَقَبَ عن أمراضهم، ثم وصل بينها وبين عبرياتهم، بل عَلَّ هذه العبريات، في قسم كبير منها، بهذه الأمراض.

ولأنني أعرف هؤلاء المؤلفين الذين ذكرهم وقرأت لكل منهم بعض مؤلفاته أو جميعها، فقد لَدَّ لي أن أتابعهم في القرحة المعدية التي كانت تتخس كارليل من وقت لآخر، أو في الدرن الذي كان ينصب الموت شبحاً دائمًا أمام الشاعر كيتس، أو في الضغط العالي للدم وهو مرض الكاتب العظيم بالزالك.

ولكن العاهة التي تحفّز إلى التفكير ليست على الدوام مرضًا في الجسم؛ إذ هي قد تكون عاهة نفسية، كالعرج في الشاعر بيرون الذي عَيَّرَته به أمه في لحظة غابت فيها عن وجدانها الأموي، فقال لها وهو يتمزق: «أمي، أنا ولدت أعرج». وكان في هذه الكلمة انتقامه وحزنه معاً.

أو قد تكون العاهة عجزاً جنسياً كما في جون رسكين وكارليل؛ فقد فرّت زوجة الأول ولم تبال أن تفضحه، أما زوجة الثاني فقد أحبته ولكنها لم تنكر أنها كانت تبيت في غرفة أخرى. ومثل هذه العاهة جديرة بأن تحفّز على السخط.

هو سخط داخلي شخصي يعود سخطاً خارجياً اجتماعياً.

يسخط المفَكَّر على نفسه فيتأكله حقد على المجتمع، فيفَكَّر ويحاول التفوق والتعظم كي يستعيض بهما عما يحس من هوان وانكسار.

هو الإحساس بالنقص يبعث على الرغبة في التكميل.

لقد كان لوفكاديyo هيـن الذي **أـلـفـ أـجـمـلـ الـكـتـبـ** عن اليابـان مشـوـهـاـ، فـأـمـضـىـ حـيـاتـهـ كـلـهـاـ وـهـوـ يـصـفـ جـمـالـ الـيـابـانـ: أـرـضـاـ وـمـاءـ وـجـبـالـ وـنـسـاءـ وـصـبـيـانـاـ.ـ وـشـوـهـةـ بـيـرـونـ الـأـعـرـجـ جـعـلـتـهـ يـرـصـدـ حـيـاتـهـ عـلـىـ جـمـالـ الـفـنـ فـيـ الـشـعـرـ.

كـلـنـاـ نـعـرـفـ أـنـ السـمـ الـخـفـيـفـ يـبـنـهـ إـلـىـ النـشـاطـ،ـ وـلـكـنـ الـكـثـيـرـ مـنـهـ يـخـمـدـ أـوـ يـمـيـتـ.ـ قـلـلـ مـنـ الـزـرـنـيـخـ يـقـوـيـ وـيـنـشـطـ،ـ وـلـكـنـ الـكـثـيـرـ مـنـهـ يـقـتـلـ.ـ وـأـمـرـاـضـنـاـ،ـ مـثـلـ الـنـقـرـسـ،ـ وـالـسـكـرـ،ـ وـالـسـفـلـسـ،ـ تـفـرـزـ سـمـومـاـ أـوـ تـحـدـثـ اـضـطـرـابـاتـ فـيـ أـجـسـامـنـاـ.ـ نـتـأـلـمـ مـنـهـاـ فـنـتـأـمـلـ أـوـ نـأـرـقـ فـنـفـكـرـ،ـ أـوـ نـسـخـتـ فـنـدـعـوـ إـلـىـ ثـوـرـةـ أـوـ تـطـوـرـ.ـ كـانـ دـارـوـينـ وـكـارـلـلـ يـأـرـقـانـ فـيـ الـلـيـلـ إـلـىـ قـرـابـةـ الـفـجـرـ،ـ وـكـانـ كـلـاهـمـاـ يـشـكـوـ الـهـضـمـ السـيـئـ أـوـ الـقـرـحـةـ الـمـعـدـيـةـ.ـ لـمـ يـكـوـنـاـ يـعـرـفـانـ مـاـ يـشـكـوـانـ مـنـهـ،ـ وـلـكـنـ هـذـاـ الـأـرـقـ كـانـ فـتـرـةـ الـاخـتـمـارـ لـلـتـفـكـيرـ الـعـلـمـيـ عـنـ الـأـوـلـ،ـ وـهـوـ الـتـفـكـيرـ الـذـيـ أـثـمـ نـظـرـيـةـ الـتـطـوـرـ،ـ كـمـاـ كـانـ فـتـرـةـ الـاخـتـمـارـ الـأـدـبـيـ عـنـ الـثـانـيـ،ـ وـهـوـ اـخـتـمـارـ أـخـرـجـ لـنـاـ عـدـيـدـاـ مـنـ الـمـؤـلـفـاتـ الـتـيـ أـلـهـبـتـ الـعـقـولـ،ـ وـأـنـارـتـ،ـ وـأـشـرـقـتـ،ـ وـأـوـجـدـتـ مـعـانـيـ جـدـيـدـةـ لـلـدـيمـقـراـطـيـةـ وـالـإـنـسـانـيـةـ فـيـ مـثـلـ «ـالـأـبـطـالـ»ـ وـ«ـالـثـوـرـةـ الـفـرـنـسـيـةـ»ـ مـنـ مـؤـلـفـاتـهـ.

وـلـكـنـ سـمـومـ الـجـسـمـ أـقـلـ فـعـلـاـ فـيـ تـحـرـيـكـ الـذـهـنـ مـنـ سـمـومـ الـنـفـسـ،ـ اـمـرـأـ الـأـبـ الـتـيـ عـشـنـاـ مـعـهـاـ وـأـتـعـسـتـنـاـ وـنـحـنـ أـطـفـالـ.

أـبـ ظـالـمـ مـسـتـبـدـ حـاـوـلـ أـنـ يـكـسـرـ عـوـدـ الـطـفـولـةـ،ـ وـلـكـنـ الـعـوـدـ صـلـبـ وـاـسـتـقـامـ،ـ ثـمـ نـشـأـ الـطـفـلـ وـهـوـ يـكـرـهـ الـأـبـ،ـ ثـمـ كـانـ ثـورـتـهـ السـابـقـةـ عـلـىـ هـذـاـ الـأـبـ ثـوـرـةـ عـلـىـ الـجـمـعـ كـلـهـ،ـ بـيـحـثـ عـيـوبـهـ وـيـدـعـوـ إـلـىـ الـمـساـوـةـ وـالـشـرـفـ وـمـكـافـحةـ الـظـلـمـ ...ـ مـكـافـحةـ ظـلـمـ الـأـبـ قـدـ اـسـتـحـالـتـ إـلـىـ مـكـافـحةـ ظـلـمـ الـجـمـعـ.

وـشـوـهـةـ الـجـسـمـ الـتـيـ وـلـدـنـاـ بـهـاـ،ـ عـرـجـ أـوـ دـمـاـمـةـ،ـ هـيـ فـيـ النـهـاـيـةـ شـوـهـةـ الـنـفـسـ الـتـيـ تـحـفـزـ الـأـشـوـهـ عـلـىـ سـدـ الـنـقـصـ،ـ وـنـشـدـانـ الـجـمـالـ وـالـكـمـالـ.ـ بـلـ يـجـبـ أـلـاـ نـنـسـىـ أـنـ الـفـضـيـحـةـ السـرـيـةـ فـيـ الـبـيـتـ قـدـ تـبـقـىـ وـخـزـاـ يـخـزـ وـيـنـخـسـ وـيـنـبـهـ وـيـوـقـظـ.

وـبـهـذـهـ الـأـمـرـاـضــ أـمـرـاـضـ الـجـسـمـ وـأـمـرـاـضـ الـنـفـســ يـسـتـحـيلـ الـذـكـاءـ إـلـىـ عـبـرـيـةـ.ـ وـلـكـنـ «ـالـذـكـاءـ»ـ هـوـ الـذـيـ يـسـتـحـيلـ إـلـىـ عـبـرـيـةـ،ـ أـمـاـ إـذـاـ كـانـتـ هـنـاـكـ بـلـادـةـ أـوـ غـفـلـةـ أـوـ بـلـاهـةـ فـإـنـ الـاسـتـحـالـةـ قـدـ تـكـوـنـ إـلـىـ الـإـجـرـامـ.ـ هـيـ عـنـدـئـ مـحاـوـلـةـ الـأـطـفـالـ لـأـنـ يـكـوـنـواـ عـظـاءـ أـفـادـاـ وـلـكـنـ بـأـسـلـوبـ الـأـطـفـالـ.

مـاـ هـيـ الـعـاهـةـ الـتـيـ جـعـلـتـ فـارـوقـ يـسـتـحـيلـ إـلـىـ مـجـرـمـ؟

كل ذي عاهة جبار.

جبار في ذكائه حتى لقد يصل إلى منصب الوزارة ولو كان أعمى، ولكن إذا لم يكن له من الذكاء أساس، فإنه يتسلو حين يكون أعمى.

هؤلاء العبارقة الذين ذكرهم الدكتور بيت كلهم مريض، إما بعاهة في الجسم تؤلم وتؤرق. وإما بعاهة في النفس، كدت أقول في الشرف، تؤلم وتؤرق.

وفي كلتا الحالتين يؤدي الأرق إلى التفكير المفر.

كان كارليل ساخطاً يحس أنه مظلوم؛ إذ لماذا يقضي عليه القدر بالعجز والهوان أمام زوجته، وكانت من جميلات إنجلترا؟

وهو يتضور ويُعد لقيماته حين يأكل ولكنه مع ذلك يتآلم.

وقد قيل له إنها قرحة في الأمعاء الصغيرة. وقيل له إنها زيخ في البصر، وقيلت له أسباب أخرى.

وقال هو إنه يتآلم لكثره الضوضاء ... كلام مريض من رجل مريض ساخط على نفسه ثم ساخط على المجتمع.

وهو يتحدث كما لو كان نبياً ويأخذ نفسه بصرامة يحاول أن يأخذ المجتمع بمثتها.

وهو لهذا السخط على المجتمع يؤلف كتابه «الأبطال»، وكأنه هتلر يدعو إلى الزعامة وقيادة هؤلاء العامة الذين يقلقونه بضوضائهم وغلاظتهم وعامتهم.

وقد عاصر نابليون ولكنه يُعد من الأبطال.

أجل، إن نابليون قد نبه إلى أنه مخدوع بالكتيرين من سماهم أبطالاً، لقد عاصر الثورة الفرنسية، فهو يتآملها ويفكر فيها كثيراً، ثم يؤلف كتابه عنها، كتاباً خالداً تزأر كلماته وتصرخ: الشعب، الشعب، الشعب. وتحس لفروط حماسته أنه كتبه في نفس واحد. وهو يبدأ هذا الكتاب بداية رمزية هي قصة العقد، عقد اللؤلؤ الذي فقدته الملكة العاشقة في استهتار الملوك.

وهو ينهي الكتاب نهاية رمزية هي قصة إعدام الملكين وإقدام الشعب الفرنسي على إيجاد سنة جديدة وشهرور جديدة وأسباب جديدة، هي السنة الأولى (في ١٧٩٢).

بداية الكتاب فسق واستهتار بين الملوك.

ونهاية الكتاب شعب يكتب تاريخه بيده ويستولي على مستقبله.

لقد ذهب عصر الأبطال ونحن في عصر الشعوب.

وهنا ننظر فيما ي قوله عنه الدكتور بيت؛ فإنه يذكر تحت عنوان «مصالحة زواجه» أنه تزوج زوجته جين الجميلة الذكية.

وكان لهما صديق هو فرود المؤرخ العظيم. وكان كارليل قد نصّ في وصيته على تعينه قيماً على مخلفاته الأدبية. وهذا يدل على أن فرود كان على مكانة كبيرة، بل حميمة، عند كارليل.

وكتب فرود ترجمة كارليل، وذكر فيها القطيعة القهيرية بين الزوجين، وأن كلاًّ منهما كان يبيت في غرفة خاصة به.

وكان كارليل ممعوداً يشكو علاً غامضة في جوفه، وصف له لعلاجها أن يتناول مسحوق الزئبق، ولكنه لم ينتفع به.

وكما يحدث في مثل هذه الحالات جعل كارليل يستوصف الأطباء والدجالين كي يُشفى من متابعيه، فوصف له بعضهم تمارين رياضية، ووصف آخر زيت الخروع، ووصف ثالث العلاج المائي، وكل هذه العلاجات كانت عقيمة حتى قال: «لا أعرف بين أبناء آدم من هم أقل منفعة من الأطباء».

وكانت هذه الكلمة يأس، وكان يعود بين كل تجربة وأخرى إلى مسحوق الزئبق (أي الطباشير والزئبق).

وكان هو يعتقد أن آلامه تعود إلى معدته وكبدته.

ولكن هذه الآلام كانت تنتقل في منطقة البطن مما جعل أحد أطباء العيون يشخص مرضه بأنه زيف في البصر، الواقع أن أوجاعه كلها ذهبت عنه تقريرياً حين أحسن ولم يُعد يكتب ويقرأ كثيراً.

أعظم ما يغرينا بالسؤال عن كارليل هو: «لو أن كارليل كان رجلاً سوياً سعيداً قانعاً هل كانت عقريته تجد التعبير والبيان في هذا الوسط الذهني الذي خلد شهرته؟» بل هل كان يمكن أن يكون عقريياً؟

«تأمل بتهوفن وبوديلير وجوجان، واذكر ما كانت تكون نتيجة صحة الجسم والعقل التامة عندهم في عقرياتهم. وبكلمة أخرى: إلى أي مدى يتكلّف العقري بـما نسميه «حادثة» وقعت له في حياته؟ لو أن كارليل الحزير المتقشف كان كأحد الناس العاديين، يستطيع أن يأكل كما يهوى ومتى يهوى، هل كان يُصدر هذه الأحكام؟ وهل كان يغسل قلمه في السم والعلقم حين كان يعبر عنها؟»

«إننا لنعرف أن مرضى النفس يتأنلون ويشكرون مما يكابدون من الزعزعة وما تولده هذه عندهم من إحساس النقص، ولكن هذه الحال نفسها، هذه الزعزعة وهذا النقص هي التي تعمل فيهم، كما لو كانت مهمازاً؛ كي ينشطوا ويخلقوا، كما أنها تزيدهم عمقاً في البصيرة حين يرون مثل هذا النقص في الآخرين.»

«لما وجد أنه لا يؤمن بعقيدته الدينية، وعرف أنه لم يبقَ أمامه غير المادية تراجع وهو في رعب، وقام في نفسه صراع يمزقها حتى ليقول: «لقد بقيت ثلاثة أسابيع وأنا لا أعرف النوم..» ولكن هذه الحشرجة الذهنية انتهت باهتدائه إلى «ميلاد روحي جديد»..»
«وهو في شقائه هذا يحس حباً جديداً للطبقات المسحوقة في الشعب فيؤلف كتابه «علامات الزمن» الذي يشرح فيه انحطاط التفكير السياسي، ويحمل على فسق الساسة الذين لا يخدمون الشعب بل يخدمون مصالحهم.»

«وهو حين يمؤلف كتابه عن الثورة الفرنسية يفرح بل يطرب به ويقول: «هاكم كتاباً لم يخرج منه منذ مائة سنة، وهو كتاب يخرج ملتهباً مارقاً من قلب رجل حي.»
كان كارليل واحداً من عشرات أو مئات المرضى الذين علمونا.

النفس السليمة في المجتمع السليم

كان المثل الروماني يقول: «العقل السليم في الجسم السليم.»

وبعض الناس يظن أن هذا المثل حكمة، مع أنه يخلو من الحكمة، ولو عُكس لكان أقرب إلى الصحة؛ ذلك أننا نجد الكثيرين من المرضى بالدربن أو السكر أو النقرس أو الروماتزم لا تؤثر أمراضهم في سلامتهم عقولهم، بل لعل هذه الأمراض تزيد عقولهم يقظة. ولكن العقل المريض كثيراً ما يؤدي إلى مرض الجسم. كما نرى مثلاً في من يتوهם وهو خاصاً يجعله يعزف عن الطعام، أو هو يخشى الإفلاس أو الموت فيبقى في قلق يؤدي إلى هزال الجسم.

والعقل مع ذلك ليس كل شيء؛ لأننا لا نسلك في الحياة بما لنا من عقل دائمًا، وإنما بما لنا من نفس.

نحن نستطيع بالعقل أن نجمع أو نطرح الأرقام ونحل مشكلة حسابية أو كيمائية. ولكننا بالنفس نحل مشكلة زوجية؛ لأننا هنا لا نعتمد على منطق الأرقام وإنما على القيم الروحية – أي الإنسانية – أو الاجتماعية، وما تحمل من معاني الشرف والمرودة والخدمة.

ما هي النفس؟

هي كياننا الاجتماعي، وهي العقل والعاطفة معاً، وهي موقف معين نتخذه نحو الكون والدنيا، وهي مجموعة عقائدها الموروثة والمكسوبة، وهي القيم الروحية والأخلاقية التي نحترمها ونتعلق بها، وهي إحساساتنا الفنية وأذواقنا، وكل هذه تنتهي بتعيين اتجاه عواطفنا ومنهج العيش الذي نحيا به.

والنفس لذلك أكبر من العقل.

ولكن هذه النفس إنما تتكون بالمجتمع.

وإذا لم يكن هناك مجتمع نعيش فيه، فليس هناك نفس؛ أي ليس هناك عواطف اجتماعية أو عقائد أو قيم أخلاقية أو إحساسات فنية ... إلخ. ولكن هذه النفس تمرض أحياناً بالجنون أو الإجرام أو الشذوذ الجنسي، وهذه الأمراض جميعها هي استجابة النفس لوسط اجتماعي معين.

ذلك أن المجتمع السليم يجب أن يخلو، أو يكاد يخلو، من الأمراض النفسية. ولكن إذا كان المجتمع قد أفسى الفاقة فبعث الحرمان فإنه يحيل عدداً كبيراً من الأفراد إلى مجرمين يخطفون ويسرقون ويغتالون.

وإذا كان هذا المجتمع قد أفسى الخوف والقلق من المستقبل فإن أفراده يفرون منهما إلى الخمر أو إلى أي مخدر آخر أسوأ من الخمر.

وإذا طغى الخوف والقلق فإن أفراده يفرون إلى الجنون، بحيث يخترع كل منهم، وهو على غير وجدان بما يفعل، جنوناً معيناً يرتاح إليه ويستقر عليه حتى يقضي سائر عمره وهو سكران بخمر نفسه يغيب بها عن أسباب القلق والخوف.

وإذا كان هذا المجتمع يفصل بين الجنسين ويجعل الزواج مع ذلك مستحيلاً إلا بعد سن الثلاثين فإن النفس المحرومة عندئذ تشد، وتتفشى العاهة النواصية بين الجنسين. وهذا كلام واضح لا تجدي فيه المكابرة بالجدل العابث أو المغالطة الماكرة، فالإجرام والجنون والعاهة النواصية هي جميعها أمراض نفسية تعود إلى أحوال معينة في المجتمع، تعود إلى مجتمع غير سليم.

فإذا توافر العمل والكسب للجميع زالت جرائم السرقة والاغتيال والنصب. وإذا توافر الاختلاط بين الجنسين وأمكن الزواج في سن مبكرة زالت العاهة النواصية. قلنا «زالت»، ولكن هذا لا يعني أنه قد يكون هناك واحد أو اثنان في المائة يقعون في أحد هذه الأمراض لأسباب أخرى محلية، مثل نظام العائلة أو نشوء مرگبات سيئة أيام الطفولة أو نحو ذلك.

ونترك الأمراض ونننظر فيما نسميه الإحساس الفني في الأديب أو الفنان، ولنسأل أولاً: لماذا يختلف الفن بين أمة وأخرى؟

لماذا يكون للألان مثلأً ألحان موسيقية وأغانٍ ورقص تختلف كلها عما عندنا من ألحان وأغانٍ ورقص؟

السبب أو الأصل لهذا الاختلاف واضح، وهو أن جميع هذه الفنون تعتمد على عواطف واتجاهات نفسية في أبناء الشعب، وهذه العواطف والاتجاهات اكتسبها هؤلاء الأبناء من المجتمع الذي يعيشون فيه، وإذا تغير المجتمع تغير الرقص والألحان والأغاني.

مجتمعنا يختلف عن المجتمع الألماني؛ ولذلك ففنوننا الثلاثة هذه تختلف عما يضارعها عند الألمان.

وقد ورثنا نحن فنوننا الثلاثة هذه من الاتجاهات النفسية التي عاشت بها مجتمعاتنا في الألفين من السنين الماضية، وهي — أي هذه الفنون التي نسميها منحطة — تعبّر عن مجتمعاتنا المنحطة في الألفين من السنين الماضية. اعتبر الرقص مثلاً، فإن الراقصة المصرية في تفاتها إلى البطن والكتفين وفي ثني أعضائها وميowitzها تمثل الأنوثة الحيوانية؛ لأن المجتمع المصري مضى عليه ألفان من السنين وهو يعامل المرأة كما لو كانت أنثى فقط.

ثم اعتبر الغناء الباكى المتنهد الحزين، فهو يمثل المجتمع المصري الذي سحقه المستبدون والمستعمرون في الألفين من السنين الماضية، ومعنى هذا أن أبناء هذا المجتمع يبكون بكاء سريّاً في نفوسهم، ولذلك يرتحون إلى المغني أو الملحن الذي يعبر عن هذا البكاء في الغناء أو اللحن.

الفنون الاجتماعية، وعصرية الفنان اجتماعية؛ لأن الفنان هو الذي تتبلور في نفسه عواطف المجتمع الذي يعيش فيه فيعبر عنها بالأسلوب الفني الذي يرتاح إليه أبناء هذا المجتمع، فما دام أبناء المجتمع يبكون ويتنهدون فعليه هو أن يحسن البكاء ويتقن التنهد. لقد كانت أسمهان تمثّلنا تمثيلاً عقريّاً في البكاء والتنهد؛ ولذلك يقول عنها محبوها إنها أفضل من جميع المغنيات.

ونستطيع أن نذكر مثالين من الأدب العربي القديم، وأن نعىن البواعث الاجتماعية التي ألهمته فإن عذنا كتابين عظيمين في هذا الأدب: أحدهما «الأغاني» الذي ألف للملوك والأمراء والأثرياء، وهو خمر ونساء في واقع الخمر والنساء وليس في أحلامهما. والثاني هو «ألف ليلة وليلة» الذي ألف للعامة بلغة العامة وهو خمر وطعام ونساء، ولكن ليس عن الواقع وإنما عن الأحلام؛ أي أحلام الفقراء المحروميين الذين كانوا يشتهون ولا يجدون. الأول يصف لنا الحياة الواقعية في مجتمع المترفين، والثاني يصف لنا الحياة الحالية في مجتمع المحروميين.

ولا عجب أن يُقرأ الثاني كثيراً في مصر ...

ومع هذا الذي قلت يجب أن أعترف بأن هناك ساخترين على الرقص واللحن والغناء في مصر، وأن هناك محاولات لتغيير هذه الفنون الثلاثة.

ولكني أُعدُّ هؤلاء الساخطين منحرفين عن المجتمع المصري؛ وذلك لأنهم نشئوا في الثقافة أو الحضارة الأوروبية أو تعودوا لها؛ أي إنهم نشئوا في مجتمع آخر فأخذوا بعواطفه وإحساساته.

ولكن هذه الفنون لن تتغير إلا إذا تغير المجتمع المصري.

إلا إذا تغير في نظرته للمرأة وتقبل راضياً مركزها الاجتماعي الجديد باعتبارها إنساناً، وليس أثثاً فقط، إنساناً له حق الإقدام والاستقلال والتعلم والاختيار.

وإلا إذا اخالط الجنسان من المهد إلى اللحد بحيث لا يعرف أحد الجنسين الانفصال عن الآخر ولو لأسبوع واحد في حياته.

وإلا إذا نظرنا إلى الحياة نظرة الاستبشار وال蒂من وكفنا عن الخوف، وإلا إذا توافر العمل والكسب لشبابنا وفتياتنا حتى لا يقلقا.

لقد رأيت الرقص الهندي حيث يرقص الرجال مع النساء، وفهمت منه، بل أينقت، أن المجتمع الهندي قد تغير.

وأنا أستنتج هذا التغير في المجتمع الهندي بهذا الرقص الجديد أكثر مما أستنتاجه باختيار شقيقة نهرو رئيسة لهيئة الأمم.

إن النفس السليمة لا تكون إلا في المجتمع السليم. وهذه الفنون الجميلة هي في صميمها، فنون نفسية، وهي مريضة عندنا؛ لأن المجتمع مريض.

هذا العلم الجديد

حدث منذ مدة قريبة أن أحد البنائين، وكان قد تجاوز الخمسين، احتاج إلى أن يقف على خشبة تعترض وتصل بين جدارين، وكانت على ارتفاع نحو عشر طبقات من البناء. فلما توسّط الخشبة نظر إلى أسفل فوجد الهوة التي تفصل بينه وبين الأرض، فتجمدت عضلاته، وجعل يصرخ، لأن كابوساً كان قد استولى عليه، وعجز عن أن يتقدم أو أن يتأنّر.

وحضر إليه زملاؤه وجعلوا يشجعونه على النهوض، ولكنه لم يستطع. ولم تكن الخشبة تتسع لأكثر من واحد يقف عليها؛ ولذلك لم يقترب منه أحد لمعاونته على النهوض، واقتصرت على تشجيعه وتحريضه. وبعد أن أقنعواه بأن يكف عن الصراخ وبعد أن استطاعوا تهدئته قليلاً استطاع، وهو يلهمث، أن يصل إلى نهاية الخشبة وينجو. وجعل زملاؤه يضحكون ويسخرون منه، ويروحون ويجيئون على الخشبة في نشاط حتى ضحك هو من نفسه. وانتهى عمل اليوم وقصد كل منهم إلى منزله، ولكن في الصباح التالي لم يحضر هذا العامل ولم يره زملاؤه بعد ذلك، ويبدو أنه ترك هذه الصناعة واختار ما هو أقل خطراً وخوفاً منها.

وحدث أن فتاة تزوجت بضغط من أبويها، ولم تكن تحب زوجها، وليس في الدنيا شيء أو إنسان نكرهه قدر ما نكره الاقتراب الجنسي من شخص لا نحبه. و Ashton الفتاة، ولكن عاطفة الاشمئزاز عمّت كيانها النفسي كلّه، فصارت تشمئز من الطعام أو بعضه فلا تأكل، حتى هزلت. وأصبح اختيار الغذاء لها مشكلة حتى بعد أن انفصلت عن هذا الزوج الذي كانت تكرهه ... مشكلة باقية مع زوال أسبابها الغريبة.

وحدث أن فتاة جميلة كان أبوها يتعلّقان بها ويدلّانها. ومات الأب، وماتت الأم بعده ببضعة شهور، وتغيّرت الدنيا الباسمة إلى دنيا عابسة في وجه الفتاة، فجعلت تتفرّد وتتنزّل في غرفتها وتحلم بدنيا أخرى في الخيال غير هذه الدنيا، ولذّ لها الخيال فاستمسكّت به وأرسخت كيانها النفسي عليه، واطمأنّت إلى حياة الخيال. وكان هذا جنونها الذي رفضت أن تتركه وتعود إلى دنيا الواقع.

فهنا ثلاثة أمثلة عن الاضطراب النفسي الذي قد يصيب أي إنسان إذا كانت طفولته قد سارت في غير الطريق السوي بحيث يكون قد أُخيف وأُزعج وهو دون الثالثة أو الرابعة من العمر؛ فإنه في هذه الحال يمكن الخوف في نفسه حتى إذا اعترضه ظرف مماثل لهذا الخوف القديم عاوده الفزع واستولى عليه جمود الرعب كما حدث في البناء الذي تجمّد على الخشبة.

إذا كان قد مرت به حادثة أو حوادث جعلته يشمئز وهو طفل فإن اشمئزازه هذا يبقى كامناً في نفسه، فإذا بلغ العشرين أو الثلاثين وطراً عليه طارئ يدعو إلى الاشمئزاز فار به إحساسه القديم، كما حدث لهذه الفتاة.

إذا كان الطفل قد دُلل في الطفولة وأسرف أبواه في تدليله حتى جعلا له الدنيا كما لو كانت مفروشة بالورود، ثم إذا مات هذان الآباء، فإن الطفل لا يطيق العيش بعد ذلك، ويستسلم لخيال الجنون.

من الذي علّمنا ذلك؟

الذي علّمناه هو فرويد. وقد علمناه في كثير من الأخطاء وسلك بنا طريقاً يحفل بالأشواك، حتى لتكاد مهمتنا تقتصر على التخلص من الأخطاء والأشواك.

لا، لم يعلمنا فرويد علمًا ولكنه فتح بصيرتنا لفهم الطبيعة والأشياء فتح بصيرتنا.

ثم نحن نحاول الآن أن نفتح عقولنا بالعلم؛ أي بالتجارب.

تعلّمنا من فرويد، ومن أنصاره وأصدقائه، أن السنوات الأربع الأولى من العمر هي كنز العواطف الذي نستمد منه سائر أعمارنا، وأيّما عاطفة سيئة تخبيء في كياننا النفسي فإنها ستثار وينفض غبارها على حياتنا إذا اصطدمنا بأحداث تولّد ما يشبه أو يقارب تلك العواطف المندسة في نفوسنا أيام الطفولة.

كلنا يستطيع، إذا كان سليماً، أن يقف على الخشبة التي تصل بين جدارين في بناء عالٍ. وكل فتاة تستطيع أن تتحمّل هذا الاشمئزاز لوقت ما ثم تنساه. وكلنا يستطيع أن

يتحمل موت أبويه. ولكن ذلك البناء الذي رَعَبَ، وتلك الفتاة التي اشْمَأَزَتْ، وتلك الأخرى التي دُلَّلتْ، كل هؤلاء قد أُسْيَءَ إِلَيْهم في طفولتهم فعرفوا الاثنان الأولان الخوف، وعرفت الثالثة التدليل المسرف الذي أَعْجَزَها بعد ذلك عن الاستقلال.

تعلَّمنا من فرويد، ومن أنصاره وخصومه، أننا إذا كظمنا خوفنا أو اشْمَئَزَانَا أو شهواننا أو همومنا فإنها تستحيل إلى بخار محبوس ينفجر عندما يجد مكاناً ضعيفاً يخرج منه. وأعظم ما يهيء له هذا المكان الضعيف أن يعترض الإنسان صعوبات تشبه ما اعترضه أيام طفولته.

الشجى يبعث الشجى.

ولكن هناك أحياناً شجى مكتوماً قد كظمناه ونسيناها، فإذا حدث لنا ما يثير مثله أو أقل منه كثيراً تذكرناه وأحياناً.

اعتبر هذا المثال: كان بافلوف، الذي ربط بين الفسيولوجية والسيكلوجية، يجرِّب تجاربه في الكلاب. وحدث أن فاض ماء النهر المجاور لمكان الكلاب واقتحم الماء أقفاصها فجعلت تنبج وتصرخ ولا تجد مهرباً، وكان صرحاً هستيرياً؛ أي كان رعباً وفرغاً وارتحاشاً؛ لأن الماء كان يتزايد ويوشك أن يخنقها.

ثم أدركت وأنقذت.

ولكن هذا الرعب والفزع والارتعاش مع الصراخ الهستيري كان يعاودها إذا دخل قليل من الماء، قليل جداً، إلى أقفاصها وبلل أيديها وسيقانها.

عاطفة قديمة مكظومة في حبسة القفص تثار من النسيان فتذكرة لأقل حادث يقاربها أو يشبهها.

وهذا هو شأننا نحن أيضاً. ألا ترى الأم تسمع عن أم قد مات ابنها فتذكرة هي أيضاً ابنها الذي مات قبل عشرين سنة، وتبكي وتتنحّب؟

لما ألحَّ الألان على لندن بإلقاء القنابل من طائراتهم عمدت الحكومة البريطانية إلى ترحيل الأطفال إلى أماكن بعيدة في الريف كي تأمن عليهم، ووُجد أن أولئك الأطفال الذين تحملوا الغربة، بل تحملوا الأخطار، هم الذين لم يعرفوا المخاوف والمخاوز ولم يضربوا ولم يكثموا في سنיהם الماضية. أما الذين ضربوا وأخيفوا وأفزعوا فكانوا يضطربون ويرعبون لأقل حادث مخيف.

والعبرة أننا إذا أردنا السلامة لأبنائنا عندما يكونون شباناً وكهولاً وشيوخاً فإن خير ما نفعله أن نؤمّن طفولتهم من الخوف والفزع، أجل، ومن الاشْمَئَزَانَ والتَّدْلِيلِ.

ما الذي يُعمل لسلام النفس؟

أعظم ما يُعمل له، كما قلنا أن نعيش مع أبوين سليمين بحيث لا نجد في طفولتنا خوفاً أو اضطهاداً أو تدليلاً. وأعني التدليل المسرف؛ لأن التدليل المعتدل نافع؛ إذ يجعلنا نهفو إلى البيت ونسعد بذكرى الأبوين طيلة حياتنا.

وأسوأ ما في الخوف والاضطهاد أننا نكتظ. ولا بد أن نكتظ؛ لأننا لا يمكننا، ونحن أطفال، أن نرد اللطمة أو نفطن إلى أن ما نخاف منه لا يستحق هذا الرعب الذي نحسه. ومعظمنا يشقى لأنه خائف، أو بكلمة أخرى لأنه جبان.

نحن جبناء لأننا في طفولتنا مرت بنا مخاوف كثيرة فلم نكتظ، ثم واجهنا مجتمعاً يجعلنا جميعاً مغامرين، نكسب ونخسر، ونخسى الغد، ولا ثق بمستقبل الذي قد يفاجئنا بالمرض أو الإفلاس أو موت الأبناء أو نحو ذلك.

مخاوف أصلية في المجتمع تثير مخاوف طفولتنا القديمة فيكون من ذلك شقاونا وتتوتراتنا.

ولكن الشجاع هو الذي لم تمر به مخاوف في الطفولة إلا في يسر، أو كان مقدارها صغيراً فتغلب عليه، فهو يجاهي الدنيا وما فيها من مغامرات وهو شجاع لا يبالي الفقر أو المرض أو أية فاجعة أخرى؛ أي إنه يجتاز الخشبة التي بين الجدارين بلا خوف وهو سعيد بهذه الشجاعة.

هذا العلم الجديد الذي أنار بصيرتنا ويقاد هذه الأيام ينير عقولنا هو علم النفس البشري، هي السيكولوجية.

وهو الآن علم؛ أي تجرب في الكلاب والقردة والصبيان والنساء والرجال المتزوجين والعزب، والعاملين والعاطلين والأذكياء والبلداء. وقد تعلمنا منه أن المجتمع يصنع الفرد، والعائلة تصوغ الإنسان، والعائلة بالطبع جزء من المجتمع، بل هي أخطر أجزاءه في الموقف السيكولوجي.

وتعلمنا منه أن العقيرية من ناحية، والجريمة من ناحية، إداهما طرف لفضائل المجتمع وذكائه والآخر طرف لرذائله وتوتراته.

تعلمنا منه أن الأمراض النفسية هي أمراض قررها المجتمع لأفراده؛ لأنه رسم خططاً وعيّن آفاقاً وأوجد وسائل لا تُطاق، فكان منها الخوف حتى إذا سار فيها الفرد اكتسب عواطفها وتحطم وجُن. ولن يحيا الفرد حياة سليمة إلا في مجتمع سليم وعائلة سليمة.

وأيما تغيير في المجتمع لا بد أن يحدث تغييرًا آخر في العواطف والأخلاق والأهداف والوسائل بين الأفراد، ولن نستطيع أن نغير الأخلاق في أمة بالنصح والإرشاد، وإنما نغيّرها فقط بتغيير وسائل العيش والارتزاق.

لا، لا يمكن فرداً أن يسعد إذا كان يعيش في مجتمع شقي. وأولئك الذين يعيشون في مجتمع شقي ويحاولون تحقيق السعادة لأنفسهم يتخذون عادة أحد طريقين:

الطريق الأول: الذي يسلكه الأكثرون، الانفراديون، هو الهروب من المجتمع بالاعتكاف والابتعاد عن مشاكله، وقد يشربون الخمر أو يقرءون القصص البوليسية؛ كي يخدروا عقولهم ويفجّروا عن حقائق هذا المجتمع، وهؤلاء سلبيون.

والطريق الثاني: الذي يسلكه الأقلون الاجتماعيون هو طريق الكفاح الذي يمارسونه كي يغيّروا هذا المجتمع ويصلحوا مؤسساته التي تعفت وبيوّجّدوا الطمأنينة بدلاً من الخوف، وهؤلاء إيجابيون، ولكنهم يفعلون ذلك في غير الإسراف والشطط اللذين وقع فيهما القديس تولستوي.

مرضى النفس وعلاجهم

هناك من الأمراض ما نسميه – نحن العامة – جنونًا أو شذوذًا يصيب أحدنا، فيحاول إخفاءه؛ لأنه يخزيه، أو هو يلجأ إلى طبيب النفس، وقد يجد فيه المعالج التزيه أو المدخل النصاب.

وقد عُرضت على إحدى المحاكم بالقاهرة قضية من هذا النوع اصطدم فيها أطباء الأجسام بأطباء النفوس، كل منهم يقول: «هذه دائرة احترافي» وكل منهم يتهم الآخر بالجهل أو بما هو أكثر منه.

ومن الحسن أن يقف الشعب على بعض الحقائق؛ كي يستنير عن هذا الموضوع؛ فإننا، في بلادنا نخرج رويدًا رويدًا من المجتمع الزراعي إلى مجتمع المدينة؛ ولذلك عرفنا السرعة والهرولة في حياتنا، وتحملنا المسؤوليات الجديدة والتكليف المرهقة، ولم نعد نستسلم للقدر. وتأخرت مواعيد الزواج وعم الشبان من الجنسين حرمان يطول أو يقصر، وظهرت المدارس والمعاهد بواجباتها المتعددة التي لا يتحملها جميع الصبيان أو الشبان، وأصبح عيشنا، في الأغلب، مباريات اقتصادية تحزن المتأخر أو المتعطل وتبعث على زيادة الجهد لزيادة الثراء.

وبكلمة أخرى: كنا نعيش حياتنا الريفية القروية في استرخاء ورضا وقناعة فأصبحنا نحيا في المدن في توتر وسخط وخوف.

ولذلك نحن نمرض؛ أي إن نفوسنا تتتوتر، ثم لا تطيق التوتر فتنهار. وحسبك أيها القارئ أن تعرف أن أعظم الأمم في الأخذ بأسلوب العيش المتمدن العصري بكل ما يلبسه من عادات عاطفية وذهنية هي الأمة الأمريكية؛ ولذلك فإن عدد الأسرة للأمراض العقلية والنفسية في مستشفياتها يزيد على عدد الأسرة للأمراض الجسمية.

ولست أقصد إلى القول بأن الأمراض النفسية هي ثمرة الحضارة العصرية وحدها؛ فإن بين الريفيين من يمرضون أيضاً، ولكن لكل مريض ريفي واحد نجد نحو خمسين مريضاً «متمنداً»، بل وربما أكثر إلا في حالات تعدد الأزواج التي تحدث أمراضًا نفسية عديدة بين الزوجات.

والأمراض النفسية ليست شاذة كل الشذوذ كما نتوهם، فإنها جميئاً مظاهر مسرفة لحالاتنا – نحن السوئين الأصحاء – فإن الفرق بيني وبين المريض أنني أنا أقلق في الصباح عندما أعرض لواجبات اليوم، ولكن القلق خفيف أتحمله في يسر، ولكن مثل هذه الواجبات لا يتحملها المريض؛ لأنها تبدو له كما لو كانت جبلاً.

وليست جميع الأمراض النفسية جنوناً مطلقاً يحتاج إلى المارستان؛ فإن هناك حالات من أمراض العقل والنفس يخفيها المريض خزيًّا ويحاول التعالج منها، أو لا يحاول؛ إذ قد يتذمّرها، وهي تجعله عرضة للفضيحة أو السجن أو تصيبه بالألم لا تُطاق تستحيل فيها حياته إلى سواد وظلم.

اعتبر هذه الحالات التي أؤكد لك أنها عن أشخاص حقيقيين:

(١) موظف لا يقل مرتبه السنوي عن ٨٠٠ جنيه لا يمتلك أن ينشل محفظة جاره في الترام أو القطار أو حتى في زحام!

(٢) شاب رياضي إذا وصل إلى ميدان باب الحديد عرق وارتعش؛ لأنّه لا يطيق الإحساس بأنّه في ميدان رحب مكشوف؛ فهو يقصد إلى الجدران المحيطة بهذا الميدان ويلترم السير إلى جوارها حتى يصل إلى المحطة، ومع هذا الحرث لا يطيق الراحة.

(٣) شاب آخر قد لزمه الاشمئزاز؛ فهو يكره خبز الطابون؛ ولذلك يشتري الدقيق بنفسه، ويعجنه، ويخبزه، وهو الذي يطبخ طعامه بنفسه بعد أن يهراً اللحم بالصابون واللوفة، بل قد يبلغ اشمئزازه من مياه القاهرة أن يسافر إلى الإسكندرية فيملأ صفيحة أو صفيحتين من ماء البحر الملح، ويعود بهما إلى القاهرة فيبخّرهما ثم يكتف بالبخار حتى يجد الماء العذب للشرب.

(٤) صبي في الثالثة عشرة دلَّ الفحص على أنه فوق الذكاء العادي، ولكنه متذبذب لا يفهم الدروس.

(٥) شاب مصاب بالعجز الجنسي مع عروسه، مع أنه لم يتوقع هذا من قبل ولم يحدث له قط في ممارساته الجنسية السابقة.

(٦) رجل وقور فوق الخمسين، ولكنه يأخذ بمذهب أبي نواس، ويعجز عن الإفلاع عن رذيلته.

- (٧) شاب يسوق السيارة، ولكن تكاد تكون له ملكة بارعة في التصادم.
- (٨) شاب يجد إرهاقاً في البيت وفي المدرسة أو الجامعة مع حرمته ما يلهمه من نزهه أو زيارة للملاهي، وهذا أدى به إلى إرهاق جنسي دائم؛ فهو إزاء كل هذا الضغط يطلق الدنيا كلها ويختصر لنفسه عالماً من الأحلام، ويُجن.

هذه أمراض لا يعرفها الناس؛ لأن أصحابها يخفونها، وهي بالطبع تحتاج إلى العلاج، ويمكن علاجها.

ما هي الأسباب للأمراض النفسية والعقلية؟

اعتقادي أن الشخص الذي أمضى طفولته بين أبوين حكيمين، لم يدللاه ولم يضطهداه، ولم يجد قسوة أو تعذيباً لجسمه أو نفسه، ولم يجد ما أخافه إلى درجة الإفزع، ولم تشر غيرته أو ثورته لوجود إخوة قد استبدوا به، إلى غير ذلك، مثل هذا الشخص يستطيع أيام شبابه أو كهولته أن يتحمل جبالاً من المصاعب دون أن تتزعزع نفسه.

ولكن للأسف الآباء الحكماء قليلون؛ ولذلك تبرز أيام الطفولة بروزاً مؤلماً عند جميع المرضى. والطبيب المعالج يحاول أن يثير عند المريض ذكرياته، فنحن نعيش في مجتمع كثير الصعوبات، فإذا اصطدمنا بصعوبة ونحن في سن العشرين أو الثلاثين مثلاً فإننا نشير، من حيث لا ندري صعوبة أخرى مماثلة لها اصطدمنا بها أيام الطفولة فيكون الخوف؛ أي خوف الأطفال المزعج، مع أننا قد تكون في سن العشرين أو الثلاثين، ومع هذا الخوف لا ندري أصله أو مأتاه.

إن سلوكنا العام في المجتمع ينبعث من عواطفنا، ولكن عندما نكون أصحاب سوين نكيف هذه العواطف ونراقبها ونوجهها.

وهناك عواطف كامنة في النفس، معظمها من أيام الطفولة تحركنا نحو اتجاهات وتثير فيها انفعالات يعجز العقل أحياناً عن التسلط عليها وعندئذ يحدث المرض؛ أي عواطف وانفعالات بلا عقل، فنحس خوفاً أو قلقاً أو رغبة في الانتحار أو اشمتزاً أو شذوذًا جنسياً أو غيره لا تُطاق، أو نحو ذلك.

وإذا كانت هذه الانفعالات والعواطف قوية طاغية فإننا نفر إلى راحة السكر بالخمر، وأحياناً قد تنتهي منها بأن نلجم إلى الجنون؛ إذ هو الراحة الكبرى التي تطرد الهموم نهائياً، ولكنها راحة الموت النفسي.

كيف تعالج هذه الأحوال؟ للأطباء النفسيين علاجات: أحدهما سريع سطحي، وهو «التنويم النفسي» الذي لا يزيد على أن يكون إيحاء مركزاً، لأن توجيه المريض الخائف بأنه ليس خائفاً؛ أي إنه شجاع جريء، والنتيجة هنا سريعة ولكنها غير ثابتة؛ إذ قد يعود هذا الخوف كما كان أو بصورة أخرى.

والعلاج الثاني هو «التحليل النفسي»، وهو أسلوب بطيء النتيجة، ولكن الشفاء يثبت، وهو يستهلك من الوقت والمال شيئاً كثيراً؛ ولذلك لا يستطيعه سوى الأثرياء أو المتخصصين الميسورين. والنظرية التي يقوم عليها التحليل النفسي أن هناك عواطف مختبئة أو مكبوتة لا يعرفها المريض نفسه، وأننا نستطيع أن نشيرها بالحديث معه حتى يتذكرها ويعرف أسبابها وظروفها، وهو متى عرف الأسباب والظروف شفيع؛ لأنه يسلط عقله على ما كان قد نسيه من هذه العواطف والإحساسات والانفعالات.

وعندي أن الكلمات اللغة أكبر قيمة في التحليل النفسي؛ لأننا نرفع بها المريض إلى مستوى جديد من الحكمية والفلسفة ونكتبه بصيرة في الحياة، بل نحن أحياناً نجعله يقف موقفاً جديداً من الحياة فنغير شخصيته ونکاد نحيله إنساناً آخر غير ما كان يعرف به نفسه.

التحليل النفسي هو: كيف يجعل المريض يعالج نفسه بعد أن عرف داءه الدفين؟ كيف نجعله حكماً يجا به صعوبات الدنيا، في ضوء ما لقيه من صعوبات الطفولة، ثم صعوبات المجتمع، كما لو كان فيلسوفاً؟

وإذن من هو الشخص الجدير بمعالجة الأمراض النفسية.

أرجو أن أصرح، في وجه المعارضة المنتظرة، بأنني رجل مادي مائة في المائة، وأن كل ما نسميه مرضًا نفسياً إنما يعود إلى تغيرات داخل أجسامنا؛ أي إلى مادة، ولكننا نجهل هذه التغيرات في الوقت الحاضر، كما نجهل الأسباب الجسمية لها. واعتقادي أن هذه الأسباب سوف تُعرف بعد عشرين أو ثلاثين سنة.

بل نحن ننصر من الآن بعض هذه الأسباب؛ فإن صدمة الخوف قد تحدث التهابات في الجلد أو قرحة في القناة الهضمية أو إسهالاً حاداً أو المرض السكري أو ضغطاً عالياً في الدم. ومعنى هذا أن هناك كيمياء يعرفها الجسم وقت المرض النفسي، وعندما نفهم هذه الكيمياء سنفهم أيضاً حركة النفس في الجسم.

ولكن إلى أن نصل إلى هذه التفسيرات الجسمية نحتاج إلى العلاجات النفسية؛ أي التنويم النفسي والتحليل النفسي ثم التأليف النفسي، وأقل ما يُقال هنا أننا وجدنا الشفاء عند استعمالها.

إن الأمراض النفسية أو العقلية إنما تنشأ من العلاقات العائلية في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من أعمارنا؛ أي كيف عاملنا أبوانا وإخواننا والخدم، وماذا كانت إحساساتنا وانفعالاتنا نحوهم، وهل وجدنا عندهم الحب أو الكراهة والعناء أو الإهمال والطمأنينة أو الخوف، فإن كل هذه العواطف سيتردد صداها بعد عشرين أو ثلاثين سنة أو أكثر. والأمراض النفسية تنشأ أيضاً من علاقاتنا الاجتماعية؛ أي مقدار الطموح الذي يبعثنا على السعي، ومقدار الكظوم التي نلقاها للتأخر في الزواج أو التخلف عن النجاح. وما هي الاصطدامات الاجتماعية التي تصادفنا ... إلخ.

إن المرض النفسي أو العقلي هو مرض العلاقات العائلية والاجتماعية، ويمكن لذلك أن نسمى الأمراض النفسية أمراضًا اجتماعية.

أما المرض الجسدي فهو مرض البكتيريا والفيروس ونقص الفيتامينات والأملاح. قد يقول لي هنا أحد أطباء الأجسام: لا تنسَ الغدد الصماء.

نعم، لا أنساها ولكننا لا نعرف عنها كثيراً، وقصيرى ما وصلنا إليه أنها خدشنا سطوحها، وإلى أن نعرفها سيبقى التنويم والتحليل معتمديننا الوحيدين في علاج النفوس المشبوهة.

وإذن من يمارس الطب النفسي؟

يمارسه أي إنسان قد درس الطب النفسي، ولا عبرة بأن يكون قد درس قبل ذلك طب الأجسام أو علم الاجتماع، أو الفلسفة، أو الآداب؛ فإنه يجب قبل كل شيء أن يكون قد درس علم النفس، أي السيكلوجية، وختص منها بفرع العلاج النفسي.

وفرويد نفسه، أبو التحليل النفسي، هو الذي أوصانا بذلك.

وأطباء النفس في الولايات المتحدة قد يكونون أطباء جسم أو لا يكونون، وكذلك الحال في إنجلترا. ولكن يجب وجوباً قاطعاً على من يعالج بالتحليل أو التنويم أن يكون على دراية وعلم بفنه.

وإذا كانا نخشى أن يتفضى بيننا الدجالون، فإن من السهل أن ننتوقي ذلك بأن نطالب جامعاتنا بتخصيص دراسات للمعالجة النفسية، يحصل دارسوها بعد المدة المقررة للدراسة على دبلومات ترخص لهم هذه المعالجة.

نحن نفكر بأفواهنا

هذا مقال في الفلسفة، أو في السيكلوجية – إذا شئت – ولكنه مع ذلك ليس ألغاراً؛ لأنني واثق أن كل من يقرأه سيفهمه.

وعنوان المقال «نحن نفكر بأفواهنا» قد نقلناه عن تريستان نازارا، ومعناه أننا نفكر بالكلمات التي تتنطق بها ألسنتنا، وإذا لم تكن لنا كلمات نفّغر بها فإننا عدينا نستطيع التفكير إلا بمقدار ما يفّغر الثور أو الجمل.

فقد انتهى المفكرون المتعمدون إلى أن الناس والأشياء والطبيعة والكون ليس لها أي معنى أو مغزى إلا في وجودنا وكلماتنا.

والمعنى من عبارة «وجودنا» هو كيف أجد نفسي في هذه الأشياء؟! ما هي صلتي بها؟ ما هي قيمتها عندي؟ ما هي أبعادي منها أو أبعادها مني؟ كيف أفهمها؟

الاعتقاد العام بين الناس أننا نعبر عن أفكارنا بالكلمات، لأن اللغة وسيلة للتعبير عن التفكير.

ولكن اللغة أكبر من ذلك؛ فإنها عند كثير من الناس كل التفكير الذي يفكرون به، وعندنا جميعاً هي التي تكيف التفكير وتكتسبه طرازه وشكله، بل أحياناً توجده. وننمونا الفكري وتتطوره بما نمو اللغة وتتطورها.

ونحن نعيّن سلوكنا مع الناس في صور أخلاقية، مثل المروءة، الإنسانية، الحب، البغض، الشماتة، وهي جميعها صور تثير عواطفنا وتوجهنا وتكيف إحساسنا وتصرفنا، وإذا فقدنا هذه الكلمات فإننا نفقد أيضاً هذه العواطف والإحساسات ولا يبقى إلا مقدار ما يجد ثور أو جمل منها.

وكذلك الصور الذهنية، مثل السياسة، الدبلوماسية، الثقافة، التطور، العلم، فإننا ما كنا لنجد هذه الصور في أذهاننا لو لا هذه الكلمات.

إننا نقول: أمس وغد، ورجل شهم ورجل نذل، وحنان الأم وعقوق الابن، وجميع هذه المعاني فقدتها لو لا هذه الكلمات التي تعينها وتربط أذهاننا بها.

بل إن الكلمات أكثر من التعين والربط؛ إذ هي تصوغ وتكيف، بل هي تستحدث في نفوسنا عواطف وعادات عاطفية ما كنا نجدتها لولاه؛ فإن كتاب القصص عندنا قد جعلوا عاطفة الحب شيئاً مألوفاً، بل هم صاغوا أسلوب الحب، وذلك مما ألفوا من هذه القصص التي شرحوا فيها، بكلمات معينة، هذا الأسلوب.

وقد نعرض بأن الحب كان موجوداً من تأليف القصص، وهذا صحيح، وإن يكن وجوده وقتئذ شيئاً يكاد يكون شاذًا مخجلًا. وكلمة الحب كانت من كلماتنا قبل تأليف القصص العصرية، ولكن الكلمة شاعت في أيامنا وأثارت عاطفة كانت راكرة كامنة، كما عينت لنا هذه القصص صيغة الحب كيف يكون وكيف يسلك المحبان.

وقد سبق لي أن قلت إن كلمات الدم والعرض والتأثير قد عينت أسلوبًا من الاغتيال والقتل في بعض مديريات الصعيد الأعلى، وإن جرائم القتل والاغتيال هذه كان يمكن أن تنتقض، بل تزول، لو أن هذه الكلمات كانت قد مُحيت من لغة السكان في قتنا وسوهاج. وهناك من يزعمون أن اللغة مرآة للأفكار، ولكن الواقع أنها أكبر وأخطر من ذلك؛ إذ هي من ناحيةٍ صياغةٌ للأفكار، وهي من ناحيةٍ أخرى تفسيرٌ للأفكار. فكلمة الحب الآن تُفسر عاطفة كانت موجودة قبل مائة أو ألف سنة في مصر، ولكن التفسير تغير؛ ولذلك تغير أسلوب الحب، والفضل في هذا لكتاب القصص.

أسلوبنا في التفكير هو في صميمه أسلوبنا في التعبير؛ لأننا لن نستطيع أن نفكر بأكثر مما تعطينا الكلمات من معانٍ، وعلى قدر النقص في معاني الكلمات يكون النقص في تفكيرنا.

كيف نفكر؟

عندما نتأمل طفلاً لم يتعلم اللغة بعد نجد أنه يعبر (أي يفكر) بأصوات وحركات نفهم منها حالته، فنسمع صوتاً يدل على حركة في حنجرته ونجد تعبيراً في وجهه ورفسات من قدميه وإشارات بيديه.

هذه هي لغتنا الأولى؛ أي هذا هو تفكيرنا الأول، فإذا كبرنا تكلمنا؛ أي اقتصرنا على حركتي الحنجرة واللسان وتركتنا حركات الأيدي والأقدام، ولكن حركاتنا اللغوية هذه

نتعلمها من الكبار ولا نخترعها؛ ولذلك على قدر ما في الكلمات التي ننطق بها، بحركات اللسان والحنجرة، يكون تفكيرنا.

وبهذه الحركات، بهذه الكلمات، قد أصبحت لنا ثقافة؛ أي نحو عشرة آلاف أو عشرين ألف كلمة (حركة في الحنجرة واللسان) صرنا نفهم بها الدنيا والحياة، ولكن هذه الكلمات أيضًا قد حبستنا في نطاق لا نخرج منه؛ إذ صاغت لنا الفكرة وبعثت لنا العاطفة وكيّفت الاثنين.

ولذلك قال ويتجمّشتين: «حدود لغتي هي حدود عالمي..»
أنا أتكلّم لثلاث غايات:

الأولى: أن أتفاهم مع الآخرين بالحديث.

الثانية: أن أتفاهم مع نفسي حين أخلو وأقول إني أفكـر.
والحقيقة أنني أستحضر الكلمات التي تعـّين تفكيري وتصوـّغ إحساسـي.

والغاـية الثالثـة: هي أنـ اللغة تعـّين موقـفي منـ الناسـ والأـشيـاءـ والـدـنيـاـ والـكـونـ، وهـيـ هـنـاـ فـلـسـفـةـ وـعـلـمـ وـأـدـبـ وـفـلـكـيـاتـ وـطـبـيـعـيـاتـ ...ـ إـلـخـ.ـ وـالـلـغـةـ هـنـاـ تـزـيدـ وـجـدـانـيـ؛ـ أيـ كـيـفـ أـجـدـ نـفـسـيـ فـيـ كـلـ هـذـهـ الأـشـيـاءـ؛ـ أيـ كـيـفـ يـزـدـادـ وـجـوـدـيـ فـيـ إـحـسـاسـيـ وـفـكـرـيـ وـتـعـقـلـيـ.

إن جوليـانـ هـكـسـلـيـ يقولـ:ـ «ـإـنـ تـطـورـ الإـنـسـانـ قـدـ وـقـفـ بـسـبـبـ الـلـغـةـ»ـ،ـ وـيـكـادـ يـكـونـ صـادـقـاـ.

ذلكـ أـنـ الزـواـحـفـ حـينـ شـرـعـ بـعـضـهـ يـجـرـبـ الـوـثـوبـ فـيـ الـهـوـاءـ؛ـ كـيـ يـأـكـلـ الـفـرـاشـ

الـطـائـرـ صـارـ جـلـدـهـ حـولـ أـجـسـامـهـ يـبـنـيـتـ رـيـشـاـ فـصـارـتـ طـيـورـاـ.

ولـكـنـتـنـاـ نـحـنـ لـنـ نـطـيرـ؛ـ لـأـنـنـاـ بـمـاـ عـنـدـنـاـ مـنـ ثـقـافـةـ (ـأـيـ كـلـمـاتـ)ـ قدـ عـرـفـنـاـ كـيـفـ نـطـيرـ

بـالـحـدـيدـ وـالـنـارـ.ـ فـالـثـقـافـةـ الـبـشـرـيـةـ؛ـ أيـ الـلـغـةـ الـبـشـرـيـةـ،ـ قدـ قـامـتـ مـقـامـ التـطـورـ الـعـضـوـيـ فـيـ

أـجـسـامـنـاـ،ـ فـلـنـ تـكـوـنـ لـنـاـ أـجـنـحةـ وـكـذـلـكـ لـنـ نـسـتـطـيـعـ إـلـقـامـةـ فـيـ الـبـحـارـ كـمـاـ فـعـلـتـ الـقـيـاطـسـ

وـالـسـلـاحـفـ بـأـنـوـاعـهـاـ؛ـ لـأـنـنـاـ بـثـقـافـتـنـاـ الـخـاصـةـ بـصـنـعـ السـفـنـ قـدـ اـسـتـغـنـيـنـاـ عـنـ ذـلـكـ.

فـالـارـتـقاءـ الـثـقـافـيـ؛ـ أيـ الـلـغـويـ،ـ قدـ عـاـقـ وـسـوـفـ يـعـوـقـ التـطـورـ الـعـضـوـيـ،ـ وـلـكـنـيـ أـعـتـقـدـ

مـعـ ذـلـكـ أـنـ كـبـرـ الـمـخـ فـيـ الـإـنـسـانـ يـعـوـدـ إـلـىـ الـلـغـةـ؛ـ لـأـنـ هـذـاـ الـعـضـوـ اـحـتـاجـ إـلـىـ أـنـ يـكـبـرـ كـيـ

يـحـفـظـ بـالـصـورـ الـعـدـيدـ الـتـيـ أـوـجـدـتـهـ الـكـلـمـاتـ؛ـ فـالـتـطـورـ الـجـسـمـيـ قـدـ أـوـقـفـ وـلـكـنـ التـطـورـ

الـمـخـ لـنـ يـقـفـ.

من أحسن ما في سارتر، صاحب الوجودية، عنایته باللغة ومواصلة البحث في ممکناتها، فهو يقول إن صناعة الكاتب هي الكلمات؛ أي الأفكار، وهو أيضًا يقول: «أنا لا أثق بما لا يمكن التعبير عنه». وهو يعني أننا ما دمنا نعجز عن التعبير فإننا نعجز عن التفكير.

ولكن أحسن ما قاله سارتر عن اللغة هو هذه الكلمات التالية التي أضعها أنا في صيغة السؤال: «هل نحن نتغير ثم نجر اللغة خلفنا ونغيرها، أم إننا نحس وجданًا لغوياً جديداً يجعلنا نرى الدنيا على غير ما كانت عليه قبلَ فنتغير؟»

واعتقادي أن هذا هو سؤال القرن العشرين في الفلسفة، وإجابتي عليه، وهي إجابة تجريبية وقنية، هي أن التفاعل اللغوي من المؤلفين العديدين يضفي على الكلمات القديمة معانٍ جديدة، ثم تعود هذه الكلمات بمعانٍها الجديدة فتحدث طرزاً جديدة في الفكر والعاطفة، فيكون التجدد الاجتماعي أو الثقافي.

وبكلمة أخرى نحن نجر اللغة، وهي أيضًا تجرّنا.

ولكن إذا سلمنا بهذا فإننا نحتاج إلى أن نعالج حياتنا ومجتمعنا وفلسفتنا وأخلاقنا من الكلمات المريضة التي تحدث لنا طرزاً مريضة من الأخلاق والمجتمع والحياة والفلسفة.

اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية

أعتقد أن أعظم ما سوف يشغل الفلسفه في السنين القريبة القادمة هو اللغة، وأن الكتب ستؤلف بالمئات عن قيمة الكلمات في الأخلاق والتوجيه الاجتماعي والتفكير المنظم. وأعتقد أيضًا أن تطورنا القادر الذي سوف نسيطر عليه ولا نتركه للطبيعة، سيتناول اللغة باعتبارها الوسط الاجتماعي الأول والأخطر في حياة الإنسان، وأن الوقت ليس بعيداً حين تسن الحكومات قوانين تلغي بها بعض الكلمات التي تبعث على الجريمة والزيغ الأخلاقي باعتبار أن هذه الكلمات هي علة الجريمة أو الزيغ. وقد التفت السيكلوجيون إلى اللغة. ولكنهم لم يستوفوا كل ما فيها من خطورة اجتماعية وذهنية وأخلاقية. وأنا هنا أؤمئ أكثر مما أعبر؛ وذلك كي أستوعب في إيجاز بدلاً من أن أتخصص في إسهاب.

وأول ما أؤمئ إليه أن الأستاذ محمود تيمور ^{ألف} درامة بلغتين إحداهما العربية الفصحى، والثانية العربية العامية، وجمعهما في مجلد واحد كما لو كانت إحداهما ترجمة للأخرى.

وهو بهذا العمل قد كشف عن مرض اجتماعي أصيل في بيئتنا العربية؛ لأن كلمات اللغة أفكار، وحين تكون لنا كلمتان فإن معنى هذا أن لنا فكرتين؛ أي إن لنا طبقتين لكل منهما أفكارها وأخلاقها وأسلوب عيشها.

وهذا دمار في مجتمعنا، ويجب أن نحაكم المسؤولين عن هذا الدمار الفكري والأخلاقي والاجتماعي، كما يجب أن نبادر بعلاجه.

والمسئولون هنا هم أولئك الذين لا يزالون ينأون عن الشعب ويربئون بالأدب أن يكون شعبياً؛ لأن الشعب عندهم هو العامة، وهم من الخاصة، فيجب أن تكون لهم لغة خاصة وأن يكون للشعب لغة العامة.

نحن المصريين عند هؤلاء أمتان: أمة متعلمة تتذوق الآداب والفنون ولها لغة راقية تؤدي التعبير عنها، وأمة أخرى جاهلة جافة لا تتذوق الآداب والفنون ويجب لذلك أن نكتب لها، إذا كتبنا، بلغتنا العالمية الجاهلة الجافة.

فأي منطق هذا يناس؟ وفي أي بلد، غير مصر، توجد مثل هذه الظاهرة؟ أليس الأخرى بالأديب أن يكتب بالكلمة السهلة والأسلوب الميسر اللذين يفهمهما الشعب؟ وأليس هدف الديمقراطية في الحكم يجب أن يقابله هدف الأديب في الديمقراطية في الأدب؟

إن حكومتنا تسن قوانينها بلغة واحدة للشعب كله، وهي لم تر حاجة قط لأن تترجمها إلى اللغة العالمية كما فعل الأستاذ تيمور في قصته، فلماذا لا نكتب بلغة ميسرة مفهومة للشعب كله؟

إننا في داء، فلنسأل من هم أصل الداء، ولنحاكمهم، ثم يكون الدواء. جاء في مجلة «التربية الحديثة» التي تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة هذه الكلمات المثيرة:

أول هذه التطورات هو التحول من اعتبار النفس البشرية مخلوقاً مستقلأً منفصلاً منعزلاً، إلى اعتباره كائناً اجتماعياً قد كونته صلاته الاجتماعية وخصته بهذه الوظيفة. والثاني هو التحول من اعتباره كائناً ثابتاً تام التكوين إلى اعتباره كائناً ينمو ويتحرك ويتفاعل ويتتطور. والثالث هو التحول من النظرة الساذجة التي تعتبر اللغة وسيلة مستقلة لنقل المعاني إلى اعتبارها وظيفة من وظائف التكوين والتفاعل الاجتماعي.

ولو كنت وزيراً للمعارف لأصدرت أمراً يومياً لجميع المعلمين في مصر به هذه الكلمات العظيمة التي كتبتها هذه المجلة:

(١) ليس الإنسان مستقلأً كما يقول سارتر، وإنما هو مكون ومؤلف بصلاته الاجتماعية.

(٢) الإنسان ليس كائناً ثابتاً وإنما هو متتطور متفاعل.

(٣) ليست اللغة لنقل المعاني فقط، وإنما هي أيضاً للتفاعل الاجتماعي.

كما نستعمل نحن الكلمات وننسلط عليها كذلك الكلمات تستعملنا وتتسطع علينا، بل هي تستعملنا أكثر مما نستعملها نحن.
نحن لا نفكّر بالأفكار وإنما نفكّر بالكلمات.
ونحن لا نخترع كلمات اللغة، بل نرثها من مجتمعنا.
ونحن مقيّدون في تفكيرنا، وموجّهون به، بما تحمل هذه الكلمات من المعاني.
وصحّيغ أننا أحياناً نخترع الكلمات، كما هو الشأن في العلوم والفنون، ولكن هذا قليل جدّاً بالمقارنة إلى ما نرث، ثم نحن نخترع الكلمات كي نعّين بها ونوضّح بها المعاني المضطربة في أذهاننا.
لأن الفكرة تبقى مضطربة غامضة مشتبهة حتى نصوغها في كلمة، فتتعين لها حدود ويتبّع لها معنى.

ولن يستطع أحد أن يفكّر بلا كلمات إلا إذا استعان على ذلك بعلامات الخرس ...
ولذلك يُسمى علم اللغة الجديد علم العلامات؛ أي السيمائية؛ لأن كلمة سيماء تعني علامة.
لقد كبرت عقولنا باللغة ... بالكلمات.
والفرق الأساسي بيننا وبين الشمبني، ليس أن مخنا أكبر من مخه، بل لأننا ننطق ولنا لغة، وهو أخرس ليست له لغة.
بل أعتقد أن مخنا أكبر من أممّ الشمبني وغيره من الحيوانات؛ لأن لنا لغة وليس لها لغة.

المخ البشري كبير نتيجة اللغة، وليس العكس.
فكما أن عنق الجمل طالت كي يصل إلى العشب كذلك كبر مخنا كي يحتوي معاني الكلمات؛ إذ ما الذي كان يبعث على كبر المخ في الإنسان سوى حاجته إلى استيعاب وتسجيل وتقلّيب المعاني؟

الوظيفة تسبق العضو.
وظيفة التعبير – اللغة – أوجدت المخ.
وتطورنا القادم سوف يكون لغويّاً مخيّاً؛ أي إن المخ سيكبر.
اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية، وهي أخطر في حياتنا من جميع المؤسسات الأخرى، مثل العائلة أو الدولة أو القوة المادية أو أي شيء آخر.
بل ماذا أقول؟

إن جميع هذه الأشياء، العائلة والدولة والقوة المادية، هي ثمرة اللغة لقد اخترعنا كلمات العائلة والبلدان والمجتمع؛ كي يوجد الأفكار التي تدل عليها.

وما يعانيه الشعب من قلق اجتماعي منبئاً بشأن الطلاق والزواج وتعدد الزوجات وتربية الأطفال إنما يرجع إلى أن كلمة «عائلة» قد اندست في وجدها وصارت جزءاً من كيانه النفسي، وهي من مخترعاتنا؛ ولذلك لا تجد لها أصلًا في أي معجم عربي. ولكن مع القيمة العظمى للغة؛ أي للكلمات، فإننا يجب أن نتنبه إلى شيئين هما عياباً عظيمان:

- (١) الأول أننا أحياناً، بل كثيراً، نسمى الشيء ونخترع الكلمة لا لتدل على حقيقة هذا الشيء، وإنما لتدل على إحساسنا نحن نحوه وما نكتسبه من هذا الشيء من قيمة فيما يتعلق بحياتنا؛ ولهذا السبب كثيراً ما نتعرّف إلى الأشياء بالعقيدة وليس بالمعرفة، فالبياض طهارة، والبومة شؤم، وموحات الضوء ألوان ... إلخ.
- (٢) والثاني أننا حين نتأمل الأشياء في هذه الدنيا أو هذا الكون، إنما نفعل ذلك ونحن نحمد هذه الأشياء؛ أي نقفها عن تدفقها، وبهذا التجميد تتغير حقيقتها في عقولنا.

ولا يمكن أن تدل الكلمات؛ أي الأسماء، على أشياء إلا بعد تجميد هذه الأشياء. ولذلك نحن لا نفهم الأشياء على حقيقتها؛ أي على تدفقها وتطورها، ولكننا نفهمها ثابتة مجمدة على غير حقيقتها.

وعلم السمائية هو العلم الجديد الذي يحاول الكشف عن الأخطاء التي نقع فيها؛ لأن الكلمات لا تنقل إلينا الصورة الحقيقية للأشياء. كل شيء في هذا الكون في تدفق.

وكي تكون اللغة خادمة أمينة للمجتمع والإنسان يجب أن تكون هي أيضاً في تدفق؛ أي في تطور.

للكاتب الفرنسي لافارج رسالة عنوانها «اللغة والثورة» وصف فيها التطورات التي سرت في اللغة الفرنسية فيما بين ١٧٩٤ و ١٧٩٩ أيام الثورة.

ذلك أنه اخترع الكلمات الجديدة لتأدية المعاني الجديدة في الثورة الفرنسية الكبرى، كما أن كلمات قديمة كانت تعبر عن النظام الإقطاعي قد أُميّت.

وفي الثورات تظهر الكلمات الجديدة على قدر التطورات.

واللغة هي أداة الإنتاج الذهني والتغييرات الاجتماعية.

اللغة هي الوجودان الفكري للأمة، ونحن نبقى في ذهول فكري إلى أن نعي أن أفكارنا بالكلمات.

ألا تعرف أنه عندما يضطرب أحد الشبان وتخالط عليه إحساساته وأفكاره ويجد الشبهات والمخاوف نطلب إليه أن يعين كل ذلك باللغة؟ أي نطلب إليه أن يكتب ويوضح بالكلمات جميع إحساساته وأفكاره، وقد يكون في عمله هذا كل الدواء الذي يحتاجه أو معظمه.

كذلك نحن في اضطراب الثورات نحتاج إلى مَن يعيّن لنا، باللغة، اتجاهاتنا ويقشع عنا ضباب المخاوف والاشتباهات.

أين لافارج المصري الذي يؤلّف لنا رسالة عن «اللغة والثورة»؟
ما دام هناك تغير وتطور قد أحدثه الثورة فيجب أن تكون هناك كلمات جديدة
توجّه وتسجّل وتنير.

في الخمسين أو الستين سنة الماضية اخترعنا كلمات غيرّت مجتمعنا وأخلاقنا.
وقد أشرت إلى كلمة «عائلة» التي نقلنا بها معنًّي أوروبيًّا يقلّل مجتمعنا و يجعلنا نتحدث ونطالب بالإصلاح في شئون الزواج والطلاق والنفقة وتعدد الزوجات وحضانة الأولاد ... إلخ.
إنها كلمة تقلّقنا قلّقاً مقدّساً.

وإلى جنب هذه الكلمة اخترعنا كلمات: مجتمع، وصحافة، وتطور، وحكومة، ونقابة، وثقافة، واستقلال، وبرلان، وعلم، وشخصية، ووجودان ... إلخ.
وقد سبق لقاسِم أمين أن أوجَدَ كلمات «سفور» و«حرية المرأة» فصارت الكلمات حقائق.

وبعض هذه الكلمات عربي قديم ولكننا أكسبناه معاني جديدة وبعضها مخترع، وقد أكسبتنا هذه الكلمات حياة ذهنية جديدة وأخلاقاً جديداً؛ أي أعطتنا «وجهة نظر» جديدة للكون حتى لأكاد أقول إنها زادت ذكاءنا.

ومهمتنا — نحن المفكرين والأدباء والعلماء — اختراع كلمات جديدة تحمل شحنات اجتماعية عن النهضة والتمدن والفكر يجعل شعبنا يحيا الحياة العصرية، ويكتسب «وجهة نظر» جديدة للإنسان والمجتمع والكون.

الكتب العظيمة التي تربينا

لا ينقص عدد الخطابات التي وصلت إلىَّ منذ أقل من عام بشأن الكتب التي يجب أن يقرأها شبابنا ويستتيروا بها عن مائة خطاب.

وجميع هؤلاء المراسلين شبان؛ فإنهم جميعاً يصفون تعليمهم السابق، ثم يبرزون ما يحسون به من نقص، ويسألون عن العلاج. وهم جميعاً يذكرون أعمارهم كأنهم يرجون أن يهتدوا إلى برنامج ثقافي للسنين القادمة من حياتهم.

وهذه الحال تدل على زعزعة نفسية قد أحدثت قلقاً وتساؤلاً واستطلاعاً. ومصدر هذه الزعزعة هو هذا التناقض القائم بين أسلوب العيش الذي نتبعه في مجتمعنا وبين ما تعلمناه وأخذنا به من عادات ذهنية قد أورثتنا إياها ثقافات كثيرةً ما تحدث لنا الحرج والبلبلة.

ومن هنا هذه الرغبة الحادة في بعض الشبان حين يسألون: ماذا نقرأ؟ أي كيف نستقر وننهأ؟ كيف نجعل عاداتنا الذهنية تواءم أسلوب عيشنا؟

وفي كل إنسان سليم النفس طاقة تطورية، وهي تحتاج إلى الغذاء المنظم بالكتب العظيمة والاختبارات العالية و المباشرة الطبيعية بالسؤال الحر والجواب الحر والاستعداد للتغيير والارتقاء.

ولكن النفس البشرية كثيراً ما تمرض فتجمد وتتجدد التطور؛ أي تجحد الحياة وتتنحر.

وحال شبابنا في مصر، في زعزعتهم وببلبلتهم، لا تختلف كثيراً عن حال الشباب في أمريكا، وإن كان المستوى يختلف.

ففي مصر نجد حضارة غريبة تطورية تكتسح أو تسود حضارتنا الموروثة أفكاراً وأشياء، كما نجد معارف تصطدم بعقائد فنتبلبل، وأحياناً نحتمي من هذا الاكتساح

أو السيادة بأن نختصم الغربيين فندعوا إلى القناعة وننكمش في محارنا أو قواعتنا، أو نكير من شأن حضارتنا، وهي الفلاحة، فنقول إنها روحية، أو نقول إننا شرقيون وهم غربيون، وكأننا قد فصلنا النوع البشري قسمين.

وفي أمريكا يجد الشباب مشكلة قريبة في موقفها من مشكلتنا، ولكنها لا تطابقها؛ فهناك يبدو التناقض واضحًا بين العيش والفكر، وقد لا يدرى القارئ المصري أن الأمريكيين يعيشون من حيث الموارد والإنتاج، في القرن الحادي والعشرين؛ فإن الأمريكي — في المتوسط — يتسلط على قوة لا تنقص عن خمسين أو ستين حصانًا يوجهها للإنتاج المادي في بناء منزل أو طائرة أو سيارة أو إنتاج زراعي أو صناعي.

ولكنه من حيث الثقافة لا يختلف عن غيره في أقطار العالم الأخرى. ومن هنا هذا التناقض الذي يحدث عنده البلبلة والزعزعة والتساؤل: ماذًا أقرأ كي أفهم وأهاد؟ أي ماذًا أفعل كي أجعل أفكارى تلائم الحضارة التي أعيش فيها؟

ومن هنا أيضًا هذا الاهتمام الذي يقارب الهم باختيار الكتب في الولايات المتحدة. فقبل أكثر من ستين سنة أوصى الدكتور إليوت بطبع مائة مجلد زعم أنها تكفل للإنسان العصري بأن يكون مثقفًا، وبعض هذه المجلدات يحتوي على عدة كتب.

وقبل نحو خمس عشرة سنة نبعث في جامعة شيكاغو ظاهرة ثقافية جديدة في شخص الأستاذ هتشنس، فإنه جعل «الكتاب» أساس المناقشة الحرة بغية التثقيف العالى، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا حمل الجامعات الأخرى على اتباع خطته، ووضع هو وأعوانه أسماء نحو مائة كتاب قيل إنها تكفل للقارئ أن يكون إنسانًا راشدًا ناضج الذهن، ولكن خطة هتشنس كانت تحتوي نظرة ونبرة.

فأما النظرة فهي قيمة الكتاب في تخریج الرجل المثقف، وأن الجامعات كانت قد أهملت هذا العامل الأول في التربية الذهنية، فيجب أن تعود إليه.

وأما النبرة فهي كيف ندرس الكتاب؟

ومن هنا كانت المناقشات الحرة بين جماعة من الطلبة يحاولون استخراج العبرة والدلالة من الكتب في الحضارة العصرية، وأسلوب العيش، ونظام المجتمع، واستقلال الذهن وحرية الضمير.

ولكن الحضارة الأمريكية تتغير في موادها وإنتاجها، كيًّا وكُّمًا، بسرعة تحتاج إلى إعادة النظر في النظرة والنبرة مرة على الأقل كل عشر سنوات.

والمحقق أن الأمراض النفسية كثيرة في الولايات المتحدة، والذي لا شك فيه أن بعض هذه الكثرة تُعزى إلى التناقض بين الثقافة (أي ما نفكر فيه)، وبين الحضارة (أي ما نعيش عليه من عائلة ومجتمع ومصنع ومزرعة ومكتب).

وهذا الاختلاف الذي يكاد لا ينقطع بين الأمس واليوم في طرق العيش يحمل الأمريكي على أن يبحث عن مراسِس جديدة غير مراسِسِهِ القديمة، وهو ينشدُها في «الكتاب». ماذا يجب أن يقرأ، وأن يعرف، وأن يعتقد؟

وأسوأ ما يلاقيه الشاب الأمريكي أنه يجد أن عقائده تناقض معارفه، وأسوأ من هذا أيضاً أن يقول المشرفون على ثقافته الباحثون عن المراسي: «إن العقيدة أروح ولكن القلق أشرف»، كما هي كلمات برتراند راسل.

أليس هناك، في الولايات المتحدة، من الأسرّة لمرضى النفس في المستشفيات ما يزيد على الأسرة لمرضى الجسم؟

الشك، القلق، الهم، النيوروز ...

ليس هناك عقائد يرتحون إليها.

وإذن أين «الكتاب» الذي يقرؤه الشاب حتى لا يحتاج إلى سرير في مستشفى الأمراض العقلية؟ أين الكتاب الذي يصالح بين عقله وقلبه؟

وهنا يثبت علينا مشروع جديد، هو محاولة جديدة لإيجاد الطمأنينة الذهنية باختيار الكتب.

ويتقدم إلينا هتشنس الذي كان قد بعث الكتاب في جامعة شيكاغو وتقدم إلينا هيئة التحرير لأعظم كتاب ظهر في العالم وهو «الموسوعة البريطانية» التي تحوي المعرف البشرية، ويعاونهم جميعهم هيئات وأفراد بغية تعين الكتب التي يجب أن نقرأها كي نطمئن.

ماذا أقول؟

كي نطمئن أم كي نقلق؟

هل يرضى الرجل المثقف أن ينزل عن قلقه الذي يثير استطلاعه؟ واجتمع هؤلاء جمِيعاً إلى السنة الماضية واختاروا ٥٤ مجلداً تحوي ٧٤ مؤلفاً؛ لأن بعض المجلدات يحوي كتابين أو ربما ثلاثة كتب وطبعت هذه الكتب طبعاً ليس فاخراً ولكنه متقن؛ لأن الثقافة ليست ترقاً وإنما هي ضرورة، ويبلغ ثمن هذه المجموعة ١٢٠ جنيهاً.

هل هذا كثير؟

إننا نقدّر سعادتنا بالدخل المالي، فلماذا لا نزيد عليه دخلاً آخر هو الدخل الذهني؟ ارتقاء أذهاننا بالقلق أحياناً، وبالطمأنينة أحياناً أخرى، وبزيادة الوجдан والتعقل، وبتربيّة شخصيتنا حتى نحس أننا في تطور وارتقاء واستقلال ونضج لا، ليس المبلغ كبيراً على القادرين، ولو كانت هناك حكومات ديمقراطية حقاً لأنّا تتحت للعجزين اقتناء هذه الكتب بعشر هذا الثمن أو بلا ثمن.

إن ثمن «الموسوعة البريطانية» سبعون جنيهاً، وقد اقتربت في كلمة سابقة ترجمتها إلى لغتنا حتى تحدث نهضة أصيلة وحتى يستحيل «الشرق العربي» إلى «الغرب العربي»، ولكن أحداً لم يقدر اقتراحي هذا. ولنعد إلى المشروع الجديد.

قلت إن الذي يبعث على القلق عند الشاب الأميركي هو التناقض بين ما يفكّر فيه؛ أي ما اكتسب من ثقافة، وبين ما يعيش به؛ أي ما يكتنفه ويلبسه من حضارة. ولذلك فإن المشروع الجديد يهدف إلى التوفيق بين الثقافة والحضارة فكيف يكون هذا؟

هذه الحضارة الأمريكية تقوم على العلم والصناعة. وإن نحن نجد أن من هذه المجموعة ٢٠ مجلداً فقط في الأدب، و٥٢ مجلداً في العلم. وهناك مجلدان اثنان للفهرست، ولكن أي فهرست؟ فهرست الأفكار البشرية، العائلة، الحرب، الحب، المجتمع، الاستعمار، الطب، الكيمياء ... إلخ.

والآن ما هو موقف شبابنا من كل هذا الذي ذكرنا؟ إنهم أيضاً في زعزعة وبلبلة وقلق، وهم يحتاجون إلى أن نذكر لهم المؤلفات التي ينبغي أن يقرءوها كي يجدوا التوفيق الذي يهدي، والمعرفة التي تقلق وتطمئن، والنظرة الفلسفية إلى الكون الذي عينه لنا أينشتين، والنظرية البيولوجية التي وجهنا إليها داروين، والعلم الذي يثير والفلسفة التي تبصر.

أين هي المؤلفات التي ترشدهم إلى كل ذلك في اللغة العربية؟ أين هو غذاء الطاقة التطورية في نفوسهم؟

وجوابي أنني لا أعرفه، لا أعرف الكتب العربية العظيمة التي يمكن أن ترشد شبابنا إلى الحياة الصالحة التي يُسعدون بها أنفسهم ويُسعدون بها غيرهم. هل يمكن أحداً أن يدلني عليها؟

كيف تتعلم العبرية

يكره عامة الناس التعليقات الطبيعية البسيطة، ويحبون أن يروا معجزة في رجل جاهل يشفي المرض أو رجل أبله يسأله لعابه يهزمي بكلمات ويتكهن عن الحظوظ. وقبل أكثر من عشرين سنة كان يجول حول مقاهي القاهرة صبي أو شاب يضرب سبعة أرقام في سبعة أرقام مثلاً ويخرج الحاصل وهو واقف بلا حاجة إلى قلم وورق، وكان عامة الناس يجدون فيه معجزة ويصفونه بأنه عبقرى.

إن العبرية عند هؤلاء معجزة وكأن الشعوب كلها من تراب في عموميتها، ولكنها من ذهب في قلة من الرجال الأفذاذ، فهم يفهمون أكثر ويعرفون أكثر من عامة الشعب، متعلميها وجاهليها.

وتعلّق الناس بالمعجزات هو علة الدعوى بأن المؤلف أو المخترع أو المكتشف «عبقري» يخالف سائر الناس، وعلة الدعوى أيضًا بأن الأبله يشفي المرضى أو يتکهن بالمستقبل، وهي في أساسها رغبة فيما يخالف المألوف.

بل لقد أُلْفَت الكتب في ماهية العبرية وتمييزها من النبوغ. والقارئ لهذه الكتب، إذا كان على شيء من الذكاء، يحس بلامعة أو غفلة هؤلاء المؤلفين؛ فإن لومبروز صاحب الرأي السخيف بشأن المجرمين «المولودين» الذين ورثوا الإجرام أو الميل إلى الإجرام هو نفسه الذي أَلَّفَ: «رجل العبرية»، وجعله أيضًا وارثًا لهذه القوة الذهنية التي يعتقد عامة الناس أنها معجزة وأنها قمة لن يمكنهم أن يصلوا إليها مهما جهدوا واجتهدوا. وقد انتهينا من لومبروز بشأن الإجرام وعرفنا، بل أتيقنا، أن الوسط الاجتماعي أو الاقتصادي السيئ هو الذي يهيئ للجريمة، ولكننا لم نصل بعد إلى القول بأن الوسط الاجتماعي أيضًا هو علة العبرية، وكما نستطيع أن نعلم الصبيان كيف ينشئون مجرمين نشالين مثلًا نستطيع كذلك أن نعلمهم كيف ينشئون أذكياء عباقرة.

ألسنا نرى رياضيين يقومون بالمعجزات في العدو والوثب والسباحة وحمل الأثقال والمصارعة؟ فهل أحد منا يعزو قوّتهم هذه إلى الوراثة؟ أي إلى أنهم ولدوا أقوياء؟ الجواب لا؛ لأننا نعرف أنهم دربوا حتى وصلوا إلى تفوقهم هذا، وكذلك الشأن في العبرية؛ فإنها تحيا في وسط معين وتحتاج إلى تربية وتدريب بحيث يستطيع أن يتحمل العقري ذهنياً ما يستطيع أن يتحمل الرياضي جسمياً.

إذا كانت العبرية تُورث فإننا يجب أن نسلم أيضاً بأن الذكاء يُورث، وبأن هناك شعوراً تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به، وعلى هذا الأساس يجب أن نبرر الاستعمار؛ إذ هو – في منطق دعوة الوراثة – حكم أمة ممتازة بالذكاء لأمة لا تمتاز به. وللأولى إذن حق استغلال الثانية، أليست هي ممتازة؟

إذا كانت أسرة تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به، فمن حق الأولى أن تستغل الثانية، وإن عندها ما يبرر الاستعمار ثم الاستغلال.

ثم هناك بيض وسود، والبيض أذكياء والسود مغفلون. وإن لا يجوز لأحد أن يقول بالمساواة بين الاثنين، هذا حكم الوراثة.

وأنا أسلم بأن فرداً قد يمتاز من آخر بمقدار من الذكاء الموروث، ولكن هذا المقدار ليس علة العبرية من طرف أو علة الغفلة من طرف آخر، وإنما السبب الأساسي، بل الوحيد، للذكاء الخارق، والطبيعة المفرطة، وللاختراع والاكتشاف، هو الوسط وليس الوراثة، كما أن السبب الأساسي للنبوغ في الجريمة وفي الرياضة هو الوسط؛ أي البيئة التي تحمل على الاهتمام بشأن معين فيكون التفكير فيه والتدريب عليه إلى درجات التتفوق.

قبل نحو مائة سنة ألف جالتون كتابه «العقلية الوراثية»، وقد زعم فيه أن الذين حكموا العالم واكتشفوا واخترعوا وقاتلوا ونجحوا في المعارك، إنما ترجع عبريتهم إلى الوراثة. وبرهان ذلك عنده أننا نجد أبناء عمومتهم وخوّلتهم عباقرة مثلهم مما يدل على أن للعقلية «دماء» تجري في عروق أفراد الأسرة.

ولم أحتاج إلى كثير من التفكير كي أسأل: «ولماذا لا نقول إن واحداً منهم وصل إلى القمة ثم صار يساعد الآخرين بالمحاباة أو بال التربية على الوصول أيضاً مثله؟»

ألسنا نعرف نحن في مصر كيف أن أبناء العمومة والخولة، من قرب منهم ومن بعد، كانوا يصلون إلى القمم في العهود الماضية عندما كان واحد منهم وزيراً أو وكيل وزارة أو نحو ذلك؟

وهل يمكن أن نقول إن تفوق العنصر التركي في المناصب العالية العامة قرابة ١٥٠ سنة في مصر على العنصر المصري برهان على عبرية تركية؟

الجواب لا. وإنذن ما هو السبب؟

السبب هو البيئة؛ أي الوسط.

وقبل نحو ستين سنة أَلَّفَ رجل إنكليزي، كان قد تأملن، كتاباً عن تفوق الجerman بالوراثة على سائر شعوب العالم، وهو هراء ضخم.

ومثل هذا الهراء الضخم نسمعه من الكتاب الجهلة عن تفوق الرجل على المرأة في الذكاء. وقد يضحك القارئ حين يعرف أن بعض البراهين على هذا التفوق أن الرجل يخترع ويكتشف، أما المرأة فلا!

وكيف تخترع المرأة وتكتشف وهي تطبخ البامية والبطاطس، وتمسح البيت كل يوم وتغسل الأطفال كل ساعة؟! هل هذه الأعمال تبعث على الاختراع والاكتشاف؟ إن الرجل يكتشف ويخترع؛ لأنّه يحيا في بيئه الصناعة والتجارة والعلم والفن والهندسة والطب، فالمجال؛ أي الوسط، يبعث على الاختراع والاكتشاف. بل الوسط يغيّر الطبيعة الموروثة.

فإنّه يحدث في الهند أن تخطف ذئبة طفلة بشرية، ثم بدلاً من أن تأكلها تربّيها ثم تصير لها أمّا رحيمه، وتنشأ الطفلة مع الذئب، فلا تمشي على قدميها وإنما على يديها وقدميها مثل الذئبة، وتستيقظ عند الغروب وتبقى ساعية تسرق الفراخ وتعوي طول الليل، وتأكلها نية بأمعائها وتتنام في النهار.

وهذه الحوادث مؤكدة، وقدقرأنا عنها كثيراً ولا مجال للشك فيها فالوسط هنا، وسط الذئاب، جعل الطبيعة البشرية طبيعة ذئبية؛ أي غيرها.

هناك أوساط بشرية تعمل للتجمد الذهني، كالوسط الزراعي مثلاً؛ فإن ميدان الاكتشاف والاختراع، بل ميدان التفكير فيه يكاد يكون معذوماً، ولذلك تجد التسليم التام للقدر والحظ.

أذكر أنني سألت أحد الفلاحين عن علة وفاة أحد أقربائه، فضحك مني وقال يهذا بي: كيف مات؟ لماذا مات؟ مات. مكتوب عليه وعلينا الموت، مقدر علينا.

ومثل هذا الموقف من القدر لا يدعو إلى بحث الموت؛ أي لا يدعو إلى الاكتشاف. ولكن ساكن المدينة يتذكّر ويسأّل ويستفهم ولا يسلّم للقدر. الوسط الزراعي أوجد النظام الإقطاعي الجامد، والتسليم للقدر، وكراهة التغيير أو التطور، واحترام التقاليد، وسائل المجموعة من الأخلاق الإقطاعية التي لا يزال أكثرها - بحكم الوسط الزراعي - فاشياً في بلادنا.

ولكن الوسط المدني، وسط المدينة والمصنع والمتجر والجريدة اليومية والمناظر السينمائية والكتب ونحوها، هذا الوسط جعل ساكن المدينة أذكي من ساكن الريف، أو بالأحرى زاد ذكاؤه حدة وقيقة، في حين جعل الوسط الزراعي ذكاء الفلاح في نوم غفلة، ومن هنا تفوق أوروبا الصناعية على أقطار الشرق الزراعية.

وهناك ظروف تزيد ذكاءنا حدة وتوظفنا وتقلقنا، فنسأل ونستفهم، ثم نفهم. فالأم التي لا تبدي ذكاء بشأن أي موضوع تفهم من حركات طفلها وإيماءاته الصغيرة ما لا نفهمه نحن؛ لأنها قلقة عليه مهتمة به، فذكاؤها هنا يقتضي بالقلق والاهتمام. وبكلمة أخرى نقول إن الدرس الأول في «كيف نتعلم العبرية» هو الاهتمام. الاهتمام البالغ الذي يشبه الهوس هو الخاصة الأولى للعبرية وكثير من القصص الطريفة عن المخترعين والمكتشفين تدل على هذا الاهتمام الذي يغمر النفس والعقل وينسى العبري مواييد غدائه أو أسماء أصدقائه، بل يكاد ينسيه كل شيء إلا موضوع دراسته وتفكيره، حتى لتعزو إليه الغفلة أو البلاهة.

وهذا الاهتمام نفسه هو صفة ذلك الصبي أو الشاب الذي كان يضرب ٧ أرقام على ٧ بلا حاجة إلى ورق وقلم؛ فإنه كان يجهل كل شيء في الدنيا إلا عملية الضرب هذه التي أصبح عبقريةً فيها لاهتمامه بها، هذا الاهتمام الذي استغرق كل مجهد عقله ونفسه حتى لم يعد يبذل أي مجهد لشأن آخر في حياته.

وهناك بالطبع ظروف تزيد اهتمامنا أو تتنقصه، ففي أيام الأزمات حين نخشى الحرب مثلًا يتضاعف بيع الصحف؛ أي إن الناس يقرءون أكثر مما كانوا قبل الأزمة، والقراءة تفتّق ذكاءهم وتجعلهم يفكرون في المستقبل الخاص لهم والعام للشعب والعالم.

وإذا شئت أيها الأب أن تزيد ذكاء ابنك حدة فاملاً دنياه الصغيرة بالاهتمامات التي تشغله واجعل له مصلحة اجتماعية أو مالية في هذا الاهتمام، وعلمه العديد من الهوايات التي تغمر شخصيته وتحمله على التفكير والعمل.

إن معظم الاختراعات كانت هوايات تشغّل فراغ المخترعين فقط، ولكنها كانت تجد منهم الاهتمام الذي يحرّك الذكاء ويُكاد يزيده.

والريفيون لا يفكرون في عمق؛ لأن وسطهم لا يدعو إلى الاهتمام. والمرأة في البيت لا تفجّر في عمق؛ لأن وسطها لا يدعو إلى الاهتمام.

والريفي يفكّر في عمق عندما ينتقل إلى المدينة حين تحرّك أشياؤها المختلفة ذكاءً، فيهتم.

والمرأة تفكّر حين تختلط بالمجتمع وتعمل وتنتج، وتهتم.

الدرس الثاني في العبرية أو الذكاء العالي أن نتعلم الحضانة؛ أي كما تحضن الدجاجة وترقد على بيضها حتى يتفقاً وتخرج الفراخ، كذلك نحتاج نحن إلى أن نرقد على الفكرة التي تخطر لنا ونتركها أياماً ونعود إليها من وقت لآخر، نتركها للعقل الباطن كي يعمل بخياله وأحلامه فيها، ثم نعود إليها كي نسلط عليها العقل الوعي؛ أي ندرسها بعقلين.

وأحياناً يؤدي المرض مثل هذه الحضانة؛ لأن المريض في سريره يفكّر كثيراً ويحلم كثيراً، وهو يعود من وقت لآخر لأفكاره يستأنفها ولكنه لا يجترها، وإنما يعاودها بالتنقيح. وأحياناً يؤدي الجرح النفسي إلى القلق، فالتفكير، فحدة الذكاء؛ لأن النفس تبقى مهمومة قلقة.

ومن هنا القيمة العليا التي نجدها أحياناً – وأحياناً فقط – لبعض الأمراض التي تقلّقنا أو تُلزمنا السرير. الفكرة الحسنة لن تفرخ إلا كما تفرخ البيضة. كلتاها تحتاج إلى أن تحضن أياماً أو أسابيع.

الدرس الثالث في «كيف تتعلم العبرية» هو أن نتعود الثقافة؛ أي نجعل الثقافة عادة ننشأ عليها ونحوّل أطفال في البيت، وهذا بالطبع يجب أن يضطلع الآباء به، كما يجب أن تكون هناك كتب مغربية نحبها ونُقِّيل على موضوعاتها منذ الطفولة، فننشأ مستطعين متسائلين مستفهمين.

وميدان العلم هنا أوسع من ميدان الأدب، فإذا كانت كتب الأطفال عن هذه الدنيا تبحث وتشرح موضوعاتها العلمية في الاختراع والاكتشاف فإن الصبي ينمو نمواً عضوياً نحو الشباب ثم نحو الرجولة المكتملة يدرس ولا يطالع، ويبحث ولا يسلم، ويؤمن بالمنطق السيكولوجي العلمي ولا يسلّم بالعقائد الموروثة.

وكثير من عاداتنا ونحن في الأربعين أو السبعين من العمر تعود إلى أننا تعودناها أيام الشباب أو الصبا، فإذا كنا نلعب الورق أو نأكل اللب أو نسرى عن همومنا بالسجائر أيام صباناً أو شبابنا، فإن مما لا شك فيه أننا سنستمر على هذه العادات حين نبلغ الستين أو السبعين من العمر.

وإذا كنا قد تعوّدنا الدراسة والاستطلاع فإن عاداتنا ستبقى بشأنهما إلى أن نموت ولو بلغنا المائة من العمر.

خلاصة القول أن العبرية لا تورّث وإنما نحن نتعود ونتدريب عليها ونحققها بظروف وبيئات معينة: أولها الاهتمام، وثانيها الحضانة، وثالثها العادة. فانظر أين مكانك من كل هذا؟

الإيمان بالأرواح مرض

الإيمان بالأرواح برهان على عقدة نفسية تحتاج إلى العلاج السينكلوجي. وأنذر أني دُعيت قبل سنوات في الإسكندرية إلى بيت أحد الموظفين لرؤية الأرواح التي شرعت منذ أشهر تكسر أطباق المائدة وأكواب الشراب وتلقي بالأواني النحاسية على بلاط المطبخ، وذهبت فوجدت شظايا الأطباق، بل وجدت زهرية عظيمة لا يقل ثمنها عن سبعين جنيهاً وهي محطمة قد تناثرت أجزاؤها.

وقد مات رب هذا البيت، وكذلك ربه، ولذلك أستطيع أن أفسر هذا التكسير في الآتي: ذلك أننا حين نكظم غيظنا نجد أننا ننفجر في يقظتنا فنتناول أقرب الأشياء إلينا فنن嗔د به ولا نبالي أن ينكسر، وكلنا يعذر هذا الكظم ويعمل على مواساته وتهديته. وإلى هنا لا نجد شيئاً غريباً.

ولكن يحدث كثيراً أننا نكظم الغيظ ثم نضغط أنفسنا خشية النقد أو الضرر الذي يعود علينا إذا أفرجنا عما في صدورنا بالسب أو الضرب أو الكسر، وعندئذ يكمن الغيظ، فإذا استولى علينا النوم جاءت الأحلام لتفريج هذا الغيظ المكظوم، فنحلم بأننا نضرب خصمنا أو أننا نراه في الطين والوحول ملوثاً يمشي في هوان وذلة، وهذا الحلم يريحنا بعض الشيء.

ولكن هناك من الناس من يعلمون فينهضون ويمشون ويؤدون أعمالاً على غير وجدان؛ أي إنهم يفعلون كل ذلك وهم في استغراق النوم، فإذا كان هناك غيظ مكتوم فإن هذا المغيظ قد ينهض في نومه ويكسر آنية البيت، يفعل كل ذلك وهو نائم فإذا استيقظ لم يذكر شيئاً.

وفي الصباح يقول سكان البيت إن الأرواح قد حطمت الآنية. أذكر مثلاً الزوجة التي تكره زوجها وتريد الطلاق، ولكنها تجد أن المجتمع لا يقرها على ذلك، فهي مغيبة كاظمة، وهي تحلم مرة بأنها انفصلت من زوجها، وتحلم مرة أخرى بأنها تزوجت غيره وهنأت بزواجه، وتحلم مرة ثالثة هذا الحلم الذي يحركها فتهض وتحطم الأثاث، وهو أثاث البيت الذي تكرهه، ثم تعود إلى فراشها وقد هدأت نفسها ونسخت كل شيء.

فنحن هنا إزاء عقدة نفسية أدت إلى بعض التدمير المنزلي. وقد شهدت أنا بالإسكندرية، كما قلت، هذه العقدة التي ولت فصولها حين انتهت بزواج جديد وانتهت بذلك كسر الأطباق.

وهذا الذي يُقال عن الأرواح التي تشفي الأمراض لا يختلف كثيراً عما ذكرت؛ فإن المريض كاظم، وأيما كظم يحدث لنا! إن لم تفرج عنه، يندس في النفس ويكمم، والأحلام تفرج عنه بعض الشيء، ولكن المريض يلجأ إلى العقيدة التي يجد فيها أحياناً ميناء السلام، ونعني أية عقيدة.

فإن الذي يشكو الصداع من ارتفاع الضغط في الدم قد يؤمن بأن الترمس هو دواؤه الناجع، وهو يأكل بعض حبات منه كل مساء أو كل صباح. والذي يشكو المرض السكري قد يؤمن بأن شراب الخروب هو أرجع دواء، وهو يملأ البيت بالخروب.

والذي يشكو الأرق قد يؤمن بأن رائحة النعناع تجلب إليه النوم. والعجيب في كل ذلك أن المرضى يجدون بعض الراحة في كل هذه «الأدوية»؛ وذلك لأنهم يرتحون إلى عقidiتهم، والراحة النفسية تؤدي إلى شيء من الراحة الجسمية، بل تؤدي إلى تخفيف الآلام.

والتجاء المرضى إلى الأرواح هو عقيدة تخفف بعض آلامهم؛ لأن المريض ما دام يؤمن بأنه سيُشفى ويوقن بأن الشفاء مؤكد فإنه يُشفى إذا كان مرضه نفسياً، ويُشفى شفاء تاماً، أما إذا كان مرضه جسدياً فإنه يجد الراحة النفسية التي تزيل آلام مرضه أو تخففها، ولكنها لن تزيل المرض.

وأخيراً هناك ما يُسمى «العمى السينولوجي»، وهو أن يكون أمامي شيء أو إنسان لا أحب أن أراهما، وعندئذ لا أراهما. كما أن هناك ما يُسمى «الصم السينولوجي» وهو ألا أسمع شيئاً لا أحب أن أسمعه مع أن جاري يسمعه.

وعكس ذلك يحدث، فإذا كنت أعتقد أنني سأرى شيئاً أو إنساناً فإن من المؤكد أنني سأراه وإن لم يكن حاضراً، وإذا كنت أعتقد أنني سأسمع شيئاً فإني سأسمعه وإن لم يكن هناك ما يُسمع.

بل إنني أستطيع أن أُلْف صورة أو أسمع صوتاً لأيما شيء يُحس، وذلك للعقيدة التي تبعث في نفسي رغبة تشبه العاطفة كي أصدق.

لنفرض أنني مريض أشتوي الشفاء، وأنا أعتقد أن «الروح» ستأتي إلى الغرفة المظلمة وستقول لي إنني سأشفي، فالعقيدة تبعث في نفسي الرغبة في التصديق، وأيما صوت يحدث أمامي أفسّره بأنه يقول «أنت ستشفي».

وعندئذٍ أخرج وأنا مرتاح وأشهد بأنني سمعت الروح تتكلم.
وهذا عبث.

لماذا يترك الناس التفكير المنطقي ويعمدون إلى العقيدة؟

إن في الإجابة على هذا السؤال التفسير المقنع للتعلق بالأرواح؛ ذلك أن المؤمن بالأرواح «يعتقد» وقد يتعقل، وهذا الاعتقاد برهان على أن في نفسه حاجة ملحة إلى الإيمان بعقيدة يعتمد عليها كما لو كانت جداراً يستمسك به أو عصاً يستند إليها.
والتعقل لا يحدث افعلاً إلا الأقل الذي لا نكاد نحسه.

ولكن العقيدة تحدث افعلاً قوياً؛ إذ هي لا ترجع إلى منطق العقل الذي لا يعتمد على المعاينة والرؤية وإنما ترجع إلى الحاجة النفسية حين نحس الشك أو الخوف أو الزعزعة فنلجلأ إلى عقيدة معينة نستند إليها كما لو كانت الدواء الوحيد الباقي لنا.

ومن هنا السهولة في مناقشة أحد الناس في شأن يتعلق بمنطق العقل وإقناعه بتغيير رأيه إذا كان مخطئاً، ولكن من هنا أيضاً الصعوبة في إقناع رجل يتعلق بعقيدة وحمله على تغيير هذه العقيدة؛ إذ هو منفعل بها؛ خوفاً أو أملأ أو نحو ذلك، وهو يحس أن تخليه عن عقيدته يزعزع كيانه وهو لا يطيق هذه الزعزعة.

وأي إنسان يعتقد في شيء ما إنما يثبت بهذا الاعتقاد أنه يعالج به مركباً أو عقدة نفسية يمكن السينكلوجي بالتحليل أن يعرف مصدرها ويعين أسبابها، ولكن الأغلب أن هذا الإنسان يرفض التحليل للوقوف على أصول عقيدته؛ لأن كيانه النفسي مرتبط بها.
فالملجنون الذي يعتقد أنه ملك على مصر أو مدير أو محافظ لإحدى المديريات أو المحافظات لن تستطيع أن تقنعه بأنه مخطئ؛ لأنه مرتاح إلى هذه العقيدة، بل كذلك هذا

الرجل الذي يزعم أن الأرض ليست كروية وإنما هي مسطحة، فإن جميع البراهين التي تصف بها عقله لا قيمة لها إزاء استمساكه بعقيدته، وكذلك المؤمن بالأرواح. العقيدة عاطفة، والعاطفة قريبة من الجنون الذي يغشى العقل ويُظلمه بل يلغيه؛ ونحن لذلك نغضب بل نحنق حين يجادلنا أحد في عقيدة نعتقد بها؛ لأنها تثير في أنفسنا عاطفة لا نتحمل نارها.

سيكلوجية الصحافة

الصحافة، مثل الرسم أو الموسيقى أو الشعر، موهبة، ولكننا لا نعني أن الإنسان «يُولد» صحفيًا؛ لأن الموهب، بل العبريات أيضًا، ليست وراثية، وإنما هي تُكتسب بالبيئة والنشأة وال التربية وال الحاجة الاجتماعية.

والصحفي الموهوب، عندما تُسأله عن أيام صباه ثم شبابه، تجد أن غرامه بالصحافة كان يشغل ذهنه ويستنزف نقوده ويستولي على دروسه ويُلقي عائلته، فإنه حوالي الثانية عشرة مثلاً، كان يجمع الصحف ويغلف المجموعات من المجلات، ويعرف الكثير من التفاصيل عن حياة المحررين والمخبرين والكتاب، فإذا تقدمت به السن وجدت أنه يراسل الصحف والمجلات قبل أن يبلغ السادسة عشرة ويحاول زيارة الصحفيين ويكتب المقال ويشتري الكتب التي يسترشد بها عن حرف الصحافة.

ولا عبرة بالقول بأنه كان في تلك السن فجأً يكتب السخافات ويؤلف الهدر من القصص أو المقالات، فإن فجاجته هنا طبيعية منتظرة لأنه مبتدئ، ولكن العبرة بأنه يسير على الطريق الواضح، وهو أنه «يهوى» الصحافة، وأن لها في قلبه مكانًا لا يشغل مثله أي موضوع آخر.

وهذا السؤال السيكلولوجي: لماذا «يهوى» الصحافة دون غيرها من الحرف؟ إن أهواهنا لا تطأ مفاجئة، وإنما هي تتكون وتنمو وتتبلور، وهي في الأغلب تبدأ في تكونها أيام الطفولة، ثم يكون لها من أيام الصبا ما يغذيها إذا وجدت الغذاء. فإذا وصلنا إلى سن الشباب عمدنا إلى التوفيق بين الهوى والمصلحة، أو بين نزعاتنا الفردية والملاءمة الاجتماعية، وعندئذ نختار من الحرف أو الصناعات أو الأعمال الكاسبة ما يتفق والهوى القديم الذي نشأ أيام الطفولة ونما أيام الصبا.

قد يكون هذا «الهوى» رذيلة لم تجد التربية السليمة لمعالجتها، مثل ذلك طفل نشأ على حب القسوة وكان في طفولته يهوى قتل الفراخ في أسلابها الأولى؛ فإذا لم يجد التربية السليمة لمعالجة هذا «الهوى» فإنه يتجه نحو «الصادية»؛ أي القسوة في الاشتقاء الجنسي. وهذا بالطبع مرض، ولكن ليس ضروريًا أن يصل السادي إلى درجة المرض الذي يحتاج إلى علاج؛ إذ هو، بضغط الظروف التي تربّيه، يتسامي بالصادية فيحترف العسكرية ويدعو إلى القتال، أو يحترف الطب ويجد في الجراحة ما يلائم ساديته مع المنفعة الاجتماعية؛ ذلك لأن في الجراحة من شق البطون أو تمزيق الأعضاء أو بتر السيقان قسوة تنزع إلى الصادية، ولكنها صادية متسامية قد ارتفعت من مستوى المرض إلى مستوى المنفعة.

الصادية في أصولها الغشيمية تعذيب للمرأة وقت الاتصال الجنسي. وهي، بالتسامي، حرفة أو عمل يحتاج إلى شيء من القسوة ولكنه يخدم المجتمع.

ولكن الصادية، مع ذلك، أصيلة في جميع الناس بلا استثناء، ولكن بدرجات منخفضة لا نكاد نحس بها؛ فإن في الاتصال الجنسي بين السوين شيئاً منها، وكثير منا يحب أن يرى القتال بين الحيوانات أو يحب قراءة القصص التي تحفل بالقتل والخطف والغدر، فإننا نحس هنا لذة صادية لنا فيها نصيب المتفرج وليس نصيب المشترك.

ولكن هذه العاهة النفسية قد تفتح حتى ليقتل الرجل، المريض، شريكه في الاتصال الجنسي وقت الاتصال.

وجميع الأمراض النفسية أصيلة في نفوسنا سواء أكنا أصحاء أم مرضى، وإنما يختلف المريض من السليم بالكلم وليس بالكيف. وليس من نسميه «مجنونًا» يهدي بأنه ملك مصر، أو بأنه يركب الججاد ويطير به في الهواء، أو بأن القطار يدوسه ويفتح أعضاءه، وليس هذا المجنون المريض طراؤ آخر غير طرazonا نحن السوين؛ فإننا نشتراك معه على الأقل بأننا نسلك سلوكه وقت الأحلام حين يتسلط عقلنا الباطن على عقلنا الوعي. و«المجنون» يختلف هنا فقط في أننا لا نخضع لهذا التسلط سوى دقائق وقت الحلم، أما هو فيبقى طوال السنين وربما طيلة حياته وعقله الباطن يتسلط على عقله الوعي.

وهناك، إلى جنب الصادية، عاهة نفسية جنسية أخرى تفتح أحياناً حتى تقود صاحبها إلى السجن أو المارستان، هي ما يُسمى «العرض».

و قبل أن نذكر «العرض» نحتاج إلى أن نقول إن العاهات النفسية كثيرة ما تبتلور في الاتصال الجنسي، فإن الصادية تظهر على أسوأها في هذا الاتصال، و«العرض» كذلك يتبلور ويظهر على أوقحه في الرغبة الجنسية؛ لأن «العرض» يبدي أعضاءه التناسلية قهراً واضطراراً بحيث يقع تحت طائلة العقاب على العمل الفاضح.

ولكن هناك أيضاً العارض الخفي الذي يتجاوز المواقف الجنسية فيرتفع إلى الملاعمة الاجتماعية، فإن «حب الظهور» هو إلى العرض بمثابة فن الجراحة إلى السادية. وذلك الرجل الذي يهوى الخطابة، أو الصحافة، أو المسرح، أو السينما، هو عارض أيضاً من حيث لا يدري، قد ارتفع بعاهة جنسية أصلية في جميع الناس فاقتصر منها على حب الظهور في حرف تحتاج إلى هذه الخصلة الأخلاقية.

فالصحافة، من الناحية السيكلوجية، يمكن أن تسمى عرضاً متساماً.

ولكن الصحافة، مثل الجراحة، تحتاج إلى درس وتعب وتنقيب.

وهذا الدرس نفسه يعود إلى مركبات عديدة، وهناك الصحافة اليسارية التي تتسم بالثورة أو التمرد على الأوضاع الاجتماعية أو الفنية أو السياسية أو المعارضة للنظم والعادات، وأعظم من ينجح فيها هو ذلك الشخص الذي لم يسعد ب حياته العائلية، فإنه ينشأ متمرداً في المجتمع، ونعني هنا أن يكتسب هذا الاتجاه منذ طفولته حين لم يكن يجد الحرية في البيت فصار بعد ذلك ينشدتها في الوطن.

ونحن في كل ما ننشد من أمان وفي كل ما نتجه إليه من خطط إنما نستوحيه — كما سبق أن أشرنا — من حيث لا ندري أو ندري، من أيام طفولتنا، نستوحيه خاماً بدائياً، ثم، بعد أن نتعلم ونتسامي بعاداتنا الفكرية الأولى، ننشد نظاماً يتحقق وما تولد في نفوسنا من ميل طفلية.

والصحفي يأخذ في درس الموضوعات التي تتصل بهذه الميل، وهو قد يأخذ من الصحافة بالناحية الخبرية، أو بالترجمة، أو بالعلوم والأداب، أو بشئون المرأة، أو شئون الشباب، وهو في كل ذلك يستند إلى اتجاهات أصلية تنهض على مركبات قديمة في كيان شخصيته.

وهنا نحتاج إلى أن ننتقل من الأساس السيكلوجي «العربي» إلى أساس سيكلوجي آخر، فإن هناك طرازين من الناس: أحدهما الطراز الانطوائي الذي يتسم بوجه مستطيل نحيف وقامة مديدة نحيفة ورأس لا تصلح فروته، والطراز الانبساطي الذي يتسم بوجه مستدير سمين مليء باللحم ورأس يبدأ فيه الصلع، منذ سن الخامسة والعشرين، من الجبهة ويسير نحو الحلق في نظام كأنه مرسوم، بحيث لا يصل الانبساطي إلى سن الخمسين أو حتى الأربعين إلا ويكون أعلى رأسه في صلع تام. وهذا إلى أن الانبساطي يسمن ويستكرش وهو في الأغلب ليس مدید القامة مثل الانطوائي.

هذا هو الرسم الكروكي لكل من الطرازين في اللحم والعظم، أما الرسم النفسي فيتألخص في أن الانطوائي يتأمل أكثر مما يتحرك، ويجد أكثر مما يهزل، وينفرد أكثر

ما يجتمع، وهو إذا دخل في الصحافة كتب المقالات وألف الكتب وعلق على الأخبار وفق المبادئ والمذاهب، وبكلمة أخرى هو فيلسوف الصحافة المتأمل المفكرة المتمذهب.

أما الانبساطي فيحب الحركة وينتقل ويتعب كي يتحرى حقيقة الخبر، وهو خفيف الروح كثير الدعاية والهزل، وهو يرى على الدوام مجتمعًا، يأتنس بحديث الأصدقاء ويكره الانفراد، وهو لا يميل إلى القراءة والتأمل، وهو في الصحافة كاتب الخبر لا يطيق قراءة المقال ولا يعرف كيف يكتبه.

وجرائد الأخبار والصور هي الجرائد الانبساطية التي قد تسرف فتنشر لنا أخباراً أو صوراً تنأى عن التحفظ والوقار.

وجرائد المقالات والتعليقات هي الجرائد الانطوية، قد تسرف فتنجنب رواية الأخبار وتحتقر قيمة الصور فيعزف عنها جمهور القراء.

الاستقلال هو الشرط الأول للشخصية

الشخصية شيء نعرفه ونلمسه في بعض الأفراد، ولكننا لا نعرف كيف نعيّن تعريفه. فقد ذكر المؤرخون أن إخناتون كان أول شخصية في التاريخ؛ وذلك لأنّه رفض الانسياق وراء التقاليد والإيمان بما يؤمن به المجتمع المصري القديم، وأثر استقلاله الفكري فكفر بالآلهة وأمن بالله واحد.

ونحن نرى هنا عالمة أولى، بل عالمة كبرى من علامات الشخصية وهي استقلال الفكر، استقلال السلوك، الجرأة على التصريح بالرأي الخاص ولو خالف هذا الرأي مزاعم الجماهير أو مزاعم الخاصة.

وفي القرن الرابع نجد في مصر خلافاً مذهبياً كاد يكون شجاراً، ذلك أن أحد المصريين — هو الأسقف أثناسيوس — ارتأى رأياً في الدين يخالف آراء الكافة من رجال الدين في الدولة الرومانية الشرقية، واستمسك برأيه وثبت عليه، فقال له أحد الأساقفة: إن العالم كله ضدك.

وهنا نجد موقفاً مشابهاً ل موقف إخناتون هو أن الشخصية تحتاج إلى شرط لا غنى عنه هو استقلال الرأي.

ونحن حين نعجب بأبي بكر أو عمر، أو بغاندي أو نهرو، أو بإبراهام لنكولن أو ثورو، إنما يكاد ينحصر إعجابنا في أن كلاً من هؤلاء كان مستقلًا في رأيه لا يبالي ولا يخشى ما يقوله الآخرون.

بل إن استقلال ثورو قد ارتفع إلى حد العمل؛ فإنه كان يقول بضرورة «العصيان المدني» وعمل بهذا القول، فرفض أن يؤدي الضرائب، وحبس لذلك. وكل هؤلاء الذين ذكرنا، نصفهم بأنهم كانوا يمتازون بشخصيات قوية؛ لأنّه كانت لهم ميزة الاستقلال في الرأي.

والشخصية بطبعتها اجتماعية.

وليس هناك مع ذلك من ينكر أن هناك اختلافات في الكفاءات الوراثية تعين وتميز بين الشخصيات الابنوسية، ولكن المجتمع هو الذي يعين ٩٩ في المائة من الشخصية. أي إننا نكتسب الشخصية من الوسط الاجتماعي الذي نعيش فيه، ومن الحوادث التي نتلقاها في حياتنا ونستخلص منها عبرة لأخلاقنا وحكمة لسلوكنا. ولذلك هناك المجتمعات الحرة التي تتيح للفرد أن يستقل ولا يخشى الموت أو ما يقارب الموت من المقاطعة، وهذه المجتمعات تبني شخصيات أفرادها. أما حين يكون المجتمع تقليدياً ينكر حرية الفكر و يجعل للعادات في اللباس، والسلوك، والعيش، قواعد لا يجوز تخطيها، فإنه يهدى الاستقلال ويعطل نمو الشخصيات.

إننا نذكر ثابليون بحربه، ولكن هناك موقفاً واحداً وقفه يجعلنا، حين نذكره، نعزّو شخصيته إليه دون هذه الحروب.

ذلك أنه حين عزم على أن يكون «إمبراطوراً» احتاج إلى أن يجعل البابا، زعيم الكاثوليكية في العالم، يضع التاج على رأسه، ولكنه في اللحظة الأخيرة تذكّر استقلاله، فنهض وحمل التاج بيديه ووضعه بنفسه على رأسه، كأنه أراد أن يعلن للعالم أنه مستقل. وفي أيامنا يؤكد سارتر استقلال الشخصية البشرية، وأن أول شرط لهذا الاستقلال أن نؤمن بما نعتقد نحن، وليس بما يعتقد غيرنا من التقاليد الاجتماعية أو العقائد الغبية، وهذا الاستقلال هو أعظم ما يجذب إليه الشبان في فرنسا بل في أوروبا.

وحين يحيا الشعب في نهضة تكثر الشخصيات فيه؛ لأن النهضة تدعو إلى الانطلاق من القيود واستشعار الحرية، وكلها يعمل للتفكير المستقل ثم لبناء الشخصية؛ ولذلك نجد شخصيات مستقلة، بل مسرفة في الاستقلال أيام النهضة الأوروبية، مثل باركيلوس وجاليليو وعشرات غيرهما.

باركيلوس الطبيب الإيطالي يحمل مؤلفات جالينوس وابن سينا ويحرقهما على ميدان المدينة ويصبح في الشعب بأن القدماء لا قيمة لهم.

وجاليليو يُجبر على الاعتراف بأن الشمس تدور حول الأرض فإذا وصل إلى الباب ليخرج يقول: بل الأرض هي التي تدور.

كلها له شخصية قاعدتها الاستقلال في الفكر والرأي. ولكن الاستقلال في الرأي لا يعني عناد الجاهل أو تعنت الأبله؛ ذلك أن الشخصية تحتاج إلى المعرفة التي تستقرر منها حكمة العيش وسداد القصد، وقد تكون هذه

المعارف مقصورة على شئون التجارة وعندئٍ نجد التجار الذي يمتاز بشخصيته، وقد تتجاوز ذلك إلى الآداب والفلسفات، وعندئٍ نجد المفكر الذي يستقل في فكره ورأيه بشخصيته العالية.

وأعظم الشخصيات بالطبع إنما تنشأ في وسط يتسم بالمعارف السليمة السديدة وبالاختبارات الثانية العديدة.

وقوة الاختبارات ووفرة المعرف تكوٌنان الشخصية.

ولذلك نحن لا نجد شخصية للمرأة التي تتعسر وجودها بل حياتها على شئون البيت لا تعرف المجتمع أو الثقافة أو حتى الضيافة. ولكن المرأة المصرية التي خرجتها جامعتنا في العشرين سنة الأخيرة تمتاز بشخصية؛ لأن لها رأيها المستقل وأهدافها الشخصية التي قد تخالف مألفو المجتمع.

إن الوسط الاجتماعي، بقدر ما يتيح للأفراد من استقلال، وأيضاً بقدر ما يتيح لهم من اختبارات ومهارات مختلفة، يكوٌن الشخصيات.

فوسط المدينة لهذا السبب أدعى إلى تكوين الشخصيات من وسط الريف.

وأحب أن أكرر أن الشخصية لا تعني العناد أو التعتن؛ فإن هذين المعنيين يشان إلى أذهاننا حين نذكر الاستقلال الذي كثيراً ما يكون ثباتاً على رأي، لكن نحن واهمون هنا؛ لأنه إذا كان الثبات على رأي سديد يدل على شخصية قوية فإن المرونة كذلك تدل على عقل يقظ، وهذه المرونة هي التي تهيئ الفرد لمواجهة المواقف الجديدة حتى يتغير ويتطور. أين شخصيتك أيها القارئ؟ أين استقلالك؟

إن الدنيا تتغير بالشخصيات المستقلة التي تأبى الخضوع والاستسلام لعادات الأسلاف وتقاليد القرون. الشخصيات التي تثبت على الرأي الشخصي الناضج ولكنها أيضاً تتغير وتتطور بمقتضى الظروف.

السعادة هي أن تمارس الحياة

منَّا من يمارس التجارة أو الزراعة، ومنَّا من يمارس المحاماة أو الطب أو وظيفة ما في الحكومة أو الهيئات الحرة.

ونحن كي نمارس فنًّا أو صناعة أو حرف، نحتاج إلى أن ندرسها ونعرف أسرارها وننهر فيها، وعلى قدر دراستنا يرتفع مقدار كسبنا منها أو تفوقنا فيها.

ولكن الذي ننساه أن قيمتنا الإنسانية واستمتعنا وسعادتنا، بل صحتنا النفسية، تحتاج جميعها إلى أن نمارس المحاماة أو الطب أو الزراعة أو الصناعة، وكما تحتاج هذه الصناعات إلى مهارة وحذق، كذلك تحتاج ممارسة الحياة إلى مهارة وحذق، وهذا نهمله، وإهمالنا لمارسة الحياة هو في النهاية إهمال للصحة النفسية، وال التربية الذاتية، وحكمة العيش، والفلسفة التطبيقية.

وهذا المجتمع الاقتنائي الذي نعيش فيه يكسبنا أهدافاً ويعين لنا أساليب تجعلنا نُكِبُّ من شأن الثراء والاقتناة، فنتعب ونكد حتى ننجح، ولكن هذا النجاح في الثراء والاقتناة فقط وليس في الحياة.

وهذا الرجل الذي كنا نعده مستقيماً فاضلاً يخرج من بيته إلى عمله ويعود من عمله إلى بيته، يدخل ويقتني منزلًا ويمضي شيخوخته بطريقه كيًّا يسوس عائلة تكاد تكون رهطًا، هذا الرجل لم يعد المثل الأعلى لنفسنا الحرة وعقولنا المستطلعة؛ إذ هو رجل عرف في عاش حياة سلبية يتوقى فيها ويتحجز ولا يقدم ويغامر ويشتبك، وبكلمة أخرى لم يمارس حياته.

إنما نمارس حياتنا حين نعي أن فراغنا ١٨ أو ١٦ ساعة، بينما عملنا لا تزيد مدتة على ٦ أو ٨ ساعات. وبناء على ذلك نعني بفراغنا العناية الكبرى. فنعرف كيف نقرأ الصحفة والكتاب، ونشتبك في شؤون السياسة والمجتمع، ونناقش فلسفة سارتر

وماركس، ونحاول أن نفهم الذرة ونعرف سطح المريخ، ونختبر الدنيا بالسياحة ونختبر المرأة بالحب، ونجرؤ على أن نفهم هذا الكون، ونجرؤ على أن نستكمل الظلم الذي خيم على أبي نواس والمركيز دوساد كما خيم على نفوس آلاف الجرميين، ونحاول أن نصلح هذا الفساد.

إنما نمارس الحياة حين نسيح. ولا يعني بالسياحة تلك الوثبة الجوية إلى قُطْرِ نَاءٍ نمضي فيه أسبوعاً وأسابيع في رؤية سينمائية للمدن وللمسارح. وإنما يعني أن يمضي كل إنسان من عمره عاماً أو أعواماً في فرنسا أو الهند، وفي الصين أو المانيا، وفي السودان أو تركيا.

أليس هذا الكوكب ملتنا؟ فكيف إذن نغادره بالموت قبل أن نراه ونختبره؟ قبل أن نعرف مشروعيتهم الكبرى في زراعة صحرائيه، وفي تغيير المجرى، وفي استغلال قطبيه، وفي تربية الأسماك وفي خبطاته، وفي إنماء ثرواته، وفي تعميم التعليم والثقافة، وفي مكافحة الحرب والمرض والجهل والفقر.

إن ممارسة الحياة فن على كل منا أن يتعلمها بنفسه، وأن يقدّر الفرص المتاحة له كي يجرؤ ويستطيع ويختبر، وأعظم أنواع الاختبار وأجملها وأسمها هو الحب الذي ينتهي بالزواج فيبني حصنًا من السعادة الدنيوية.

وشبابنا يهملون دراسة الحياة ثم يعجزون عن ممارستها، وقصارى مجهودهم في الدنيا أن يمارسوا صناعة للارتزاق. وقد ضيق علينا الاستعمار والاستبداد معاً حين منعناً إنشاء المصانع، حتى صار الارتزاق مشكلة، ونشأ التعطل فأصبح الهم والاهتمام الأولان لكل شاب الحصول على عمل للارتزاق، وحتى أصبح الاتجاه للنشاط وابناعث الهمة والطموح مقصورة جميعها على لقمة العيش لا أكثر.

وأسوأ من الشاب الفتاة، على الرغم من القلة الصغيرة التي تعلمت من نسائنا واحترفت الحرف لا تزال الملائين من فتياتنا ونسائنا يحتجزن في البيت كأنه هو كل ما ينبغي أن تُطلق فيه طاقتهن البشرية، وكأن هذه الدنيا بما فيها من علم وصناعة، وعمل وسياحة، وفلسفة وسياسة، كأنها لا قيمة لها عندهن، فهن في احتجاز منزلي قد أدى إلى احتجاز ذهني.

وليس المنزل، في تطوره الأخير، مما يستوعب نشاط المرأة. بل هو لا يستوعب نصف نشاطها. ويجب لذلك أن يكون لكل امرأة نشاط خارجه هو نشاط الحياة الحية المتسائلة المستطولة الدارسة المشتبكة في شئون كوكبنا؛ لأن ما ينطبق على الرجال في ممارسة الحياة ينطبق على المرأة.

وهذا الدستور الجديد الذي منح المرأة حق الانتخاب قد فتح كوة لها على الدنيا. وهي كوة صغيرة بلا شك، ولكنها سوف تتسع بل تتراحب إلى ميادين ثم إلى آفاق في المستقبل، وعندئذ يزول عنها حجاب العقل كما زال عنها حجاب المنزل.

وأخيراً يجب أن أقول إن الفرق بين رجل سعيد سليم النفس، وبين رجل بائس مريض النفس، هو أن الأول كثير الاهتمامات العليا التي ترفعه من الشؤون العادمة اليومية إلى قمم الأفكار حتى يحس بأن هذا العالم كله هو قريته التي يعرف ناسها وشوارعها ويهتم بإصلاحها وإنماها. أما ذلك البائس الذي لا يدرى أحياناً، لفط بؤسه، أنه بائس، فهو ذلك الذي لا يهتم إلا بعمله ولقمه. وهو جدير عندما يموت أن يُكتب على قبره: «ولد إنساناً ومات بقلاً».

أنت أيها القارئ إنسان قبل أن تكون موظفاً أو صانعاً أو فلاحاً أو محامياً أو مهندساً أو بقلاً، فأحلي إنسانيتك وغذّها بالاهتمامات العالية، واذكر أن من حرقك أن تستقطر آخر قطرة من السعادة على هذا الكوكب؛ إذ ليس لك كوكب آخر تعيش فيه وتنشد فيه السعادة؛ لأن المريخ لا يزال حلماً لما يتحقق احتلاله على أيدي البشر.

لا تكن في حرب باردة مع نفسك

كثيراً ما دعوت إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية العصرية وأهدافها، وقد يعتقد من يقرأ قوله في هذا الموضوع أنني مغرم بهذه الحضارة لا أعرف ما هو أسمى منها، وهذا وهم أعنذر القارئ عليه.

ذلك أن ما يدفعني إلى القول بالأخذ بالحضارة الغربية العصرية أنها حضارة عدوانية مسلحة في السلم وال الحرب، وأننا إذا لم نجارها استطاعت أن تهزمنا وتكتسحنا، بل تبيتنا كما تفعل الآن مع الزنوج في أفريقيا، وأكبر أسلحتها هو الصناعة التي يجب أن نعجل بل نهروه في الأخذ بها.

ولكنني مع ذلك لا أعمى عن العيب الأصيل في هذه الحضارة، وهي أنها انفرادية اقتصائية تزاحمية عدوانية شعارها الذي تعمل به هو: تنازع البقاء، والبقاء للأقوى، وأنا وحدي، والموت للمتخلفين.

وهذا النظام الانفرادي الذي تحاول جميع الطبقات الوعية أن تنتقل منه إلى نظام تعافي اشتراكي هو الأصل في جميع أو معظم أمراضنا النفسية، وفي جميع ما نعاني من هموم وتوترات ومخاوف قد تحملنا على الإجرام أو تردينا في مهاوي الجنون أو تدفعنا إلى الهروب والنسى بالخمور والمخدرات.

هذا النظام الانفرادي هو الذي يشيع القلق بيننا؛ لأننا نخشى التخلف والإفلاس والفقر والجوع، فنمتلئ هموماً تزيغ عيوننا وعقولنا عن رؤية الحياة كما يجب أن تُرى بقيمها الإنسانية الحقيقة بدلاً من القيم الاجتماعية الزائفة التي تملينا علينا هذه الحضارة؛ ولذلك عندما نقول بالأخذ بالحضارة الأوروبية العصرية يجب ألا ننسى هذه العيوب الأصلية فيها، وإنما تدعو إليها مؤقتاً كي نحتمي من عدوانها، سلاح بسلاح، ثم نسعى لإيجاد المجتمع الاشتراكي الذي يريحنا من مأساتها وفظاعاتها.

كلنا مهموم. والهموم سرور تأكل أعصابنا وتفشي أمراض النفس والجسم في أشخاصنا وتقصر أعمارنا؛ فإننا نحيا، بحكم الأخلاق التي يملئها علينا المجتمع الانفرادي الحديث، في طموح يرهقنا ولا نستطيع أن نتحمل مسؤولياته، وننطمح في الثراء أو الجاه بأكثـر مما نطـيق، ونعنـي ألوانـاً من الحـدـسـ والـغـيـرـةـ فـنـحـقـدـ، وـكـثـيرـاـ ما نـكـظـمـ، وـلـيـسـ شـيـءـ يـحـطـمـ الـجـسـمـ وـالـنـفـسـ مـثـلـ الـكـظـمـ. وأـحـيـاـنـاـ نـسـتـسـلـمـ لـخـرـافـاتـ تـشـيرـ فيـ نـفـوسـنـاـ عـوـاـطـفـ زـائـفـةـ قدـ تـنـتـهـيـ بـمـوـتـنـاـ أوـ دـمـارـنـاـ أوـ جـنـونـنـاـ.

اعتبر هذه الموتة التي نشأت عن روح الاقتناء.

شاب قبطي أورثوذكسي أحب فتاة قبطية بروتستنـية وشرع يهـيـءـ الوسائلـ للـزـواـجـ منهاـ، وـلـكـنـ أـمـهـ كـانـتـ أـورـثـوذـكـسـيـةـ مـتـعـصـبـةـ لـمـذـهـبـهاـ، أوـ هيـ كـانـتـ تـعـتـقـدـ ذـلـكـ، فـحاـوـلـتـ أنـ تـمـنـعـ اـبـنـهـ مـنـ إـتـمـامـ هـذـاـ الزـواـجـ، وـلـكـنـ أـبـيـ وـأـصـرـ عـلـىـ إـتـمـامـهـ، فـقـصـدـتـ الـأـمـ، حـمـةـ الـمـسـتـقـبـلـ، إـلـىـ الـفـتـاةـ وـاعـتـدـرـتـ إـلـيـهـاـ عـمـاـ قـامـتـ بـهـ مـنـ مـحاـوـلـاتـ لـلـتـعـوـيـقـ وـقـبـلـهـاـ، وـعـادـتـ إـلـىـ مـنـزـلـهـاـ، وـتـمـ الـزـواـجـ.

وـحـدـثـ بـعـدـ ذـلـكـ أـنـهـ فـيـ صـبـيـحةـ الـيـوـمـ التـالـيـ لـلـعـرـسـ أـنـ اـسـتـيقـظـتـ الـحـمـةـ وـهـيـ عـمـيـاءـ لـأـتـرـىـ شـيـئـاـ، وـبـعـدـ أـيـامـ حـدـثـ لـهـاـ فـالـجـ، وـفـيـ نـهـاـيـةـ الـأـسـبـوـعـ مـاتـ. فـمـاـ هـوـ التـفـسـيرـ؟

التفـسـيرـ أـنـهـ كـانـتـ تـنـتـظـرـ إـلـىـ اـبـنـهـ بـرـوحـ الـاقـتنـاءـ كـمـاـ لـوـ كـانـ عـزـبـةـ تـمـلـكـهـاـ وـتـحـبـ أـنـ تـحـرـسـ عـلـيـهـاـ حـتـىـ لـاـ تـضـيـعـ مـنـهـاـ، رـوـحـ الـاقـتنـاءـ هـيـ الـرـوـحـ الـعـامـةـ لـلـحـضـارـةـ الـانـفـرـادـيـةـ الـتـيـ أـخـذـنـاـ بـهـاـ الـحـضـارـةـ الـاقـتنـائـيـةـ؛ وـلـذـلـكـ رـعـيـتـ الـأـمـ عـنـدـمـاـ أـحـسـتـ أـنـهـاـ سـتـفـقـدـ اـبـنـهـ بـالـزـواـجــ، وـوـجـدـتـ، بـلـ اـخـتـارـتـ، مـنـ حـيـثـ لـاـ تـدـرـيـ، الـعـلـةـ السـطـحـيـةـ الـوـهـمـيـةـ، وـهـيـ أـنـ الـفـتـاةـ لـيـسـ أـورـثـوذـكـسـيـةـ مـثـلـ اـبـنـهـ.

وـاعـتـبـرـ هـذـهـ الـمـوـتـةـ الثـانـيـةـ.

كان عـامـاً فـقـيرـاـ فـيـ مـصـنـعـ، وـارـتـقـىـ لـكـثـرـةـ ماـ يـبـذـلـ مـنـ مـجـهـودـ أـحـقـ أـنـ يـقـومـ بـهـ رـجـلـانـ بـلـ ثـلـاثـةـ بـدـلـاـنـ وـاحـدـ، وـبـكـلـمـةـ أـخـرـىـ كـانـ يـرـهـقـ نـفـسـهـ وـيـهـتـمـ وـيـقـلـقـ، إـرـهـاـقـ وـقـلـقـ أـحـدـثـاـ لـهـ زـيـادـةـ فـيـ ضـغـطـ الدـمـ فـصـارـتـ الصـغـائـرـ تـبـدوـ لـهـ كـبـائـرـ ثـمـ ذـاتـ صـبـاحـ مـاتـ بـانـفـجـارـ فـيـ الـمـخـ. فـمـاـ هـوـ التـفـسـيرـ؟

كلنا يطمح إلى النجاح، وهذا الطموح فضيلة إذا مارسناه في اعتدال بلا إسراف، ولكن النجاح ماء ملح يزيد عطشنا؛ ولذلك أرهق هذا الرجل نفسه كي يستزيد من النجاح، فكان يجهد ويعمل أكثر مما يتحمل حتى زاد ضغط الدم على درجة الاعتدال، وانتفخت الشريان حتى انفجرت.

ومجتمعنا، كما يدعونا إلى الاقتناء، يدعونا كذلك إلى الطموح وأحياناً يقتلنا، أو نحن نقتل أنفسنا بالعطش إلى الاقتناء وبإحساس الطموح المسرف. وفي كلِّيَّهما قلق وهم يحدثان إرهاقاً يؤدي إلى توترات ومخاوف لا نطيقها.

كل منا لهذا السبب، في حرب باردة مع نفسه، إلا أولئك الحكماء الذين عرفوا كيف يقنعون وكيف يسوسون أعصابهم وينظرون إلى الحياة الناظرة الفلسفية ويسلكون السلوك الحكيم.

لقد قام «بافلوف» بتجارب على الكلاب نستطيع أن نستخرج منها حكمة لحياتنا في هذه الحضارة التي ترهقنا وتقلقنا. ذلك أنه علّم طائفة من الكلاب أن تنتظر تقديم الطعام بعد رنين من الجرس يبلغ ٥٠ رنة في الدقيقة، فإذا زاد الرنين إلى مائة رنة فهم الكلب أن الطعام لن يُقدم إليه.
٥٠ رنة تعني طعاماً.

١٠٠ رنة تعني «لا طعام»؛ أي حرماناً.

وكرر بافلوف هذا الدرس للكلاب حتى فهمته واستقرت عليه، ثم قام بتجربة أخرى تتصل بنا نحن البشر؛ وذلك أنه جعل الجرس يدق ٧٥ رنة ثم يقف. فلا هو يؤذن بالطعام ولا بالحرمان فماذا حدث؟

حدث القلق عند الكلاب من الشك، فصارت تعوي وتتضرور كأنها تبكي وترتالم.

نحن في الحضارة العصرية نعيش في قلق الشك لا نعرف هل سننجح أم نخيب؟ هل نثري أم نفلس؟ هل نمرض أم نبقى في صحتنا؟ هل نحيا أم نموت؟ وكذلك لنا شكوك بشأن أولادنا وأصدقائنا.

نعيش في الحضارة العصرية على درجة ٧٥ رنة في الدقيقة، لا طمأنينة بالطعام ولا يقين بالحرمان؛ ولذلك نحس القلق الذي يزيد، بقوة خيالنا، إلى مخاوف وأمراض نفسية خطيرة.

وهذا القلق يجعلنا مكروبين، ضائقين، متورين. والتوترات ترهقنا لأنها تحملنا على أن ننفق من قوة أعصابنا على العمل الصغير أكثر مما يستحق؛ لأن المتوتر كالمتجلل المهرول الذي يحاول ربط حذائه فيخطئ ويكرر المحاولة؛ أي إنه ينفق قوته سدى.

وقد وجد بافلوف أن الكلاب القلقة التي ألح عليها بدرجة ٧٥ رنة تصر أعمارها وتمرض بأورام مختلفة ويسقط شعرها وتُصاب بما يشبه الروماتزم في مفاصلها؛ أي إنها تبكر في الشيخوخة.

أي إن القلق العصبي عند الكلاب – ويقابله القلق النفسي عندنا – يعرضنا للأمراض الجسمية وينقص أعمارنا.

كيف نسوس أعصابنا ونحن نعيش في حضارة تبعث في نفوسنا الشك والقلق وتحملنا على التوترات التي لا تنتهي؟

يجب أن يدرس كل منا حياته ويعرض للسنين التي مضت من عمره والسنين التي ينتظرها، ثم يؤلف من هذه الحياة نظاماً معقولاً بعد أن يقيس كفاءاته إلى مقدار ما يواجهه من ظروف، وعندئذٍ يعرف ويستقر على سلوك معين ترتاح إليه نفسه.

فنظامنا الاجتماعي الحاضر يمجد الأنانية ويملأنا بروح الطمع والاقتناء، ويبعث في نفوسنا عواطف المباراة والحسد والغيرة، ونحن في حاجة إلى شيء من هذه العواطف كي نجد ونكسن حتى نعيش، ولكن يجب أن نفعل هذا بلا إسراف حتى لا نرهق؛ أي يجب أن نحد طموحنا فلا نطلب النجوم التي لن ننالها.

وتوترات النفس تؤدي إلى توترات الجسم، والعلاج الأول للتوترات هو النوم الذي وصفه نيشه بأنه سيد الفضائل، ولكن يجب أن ننام كي نستيقظ؛ لأن النوم ليس غاية إنما هو وسيلة لأن نصحو وننتبه ونفهم، وإذا كان النوم حسناً وافياً صارت يقظتنا حسنة وافية.

وأقل من النوم في الراحة هو الاسترخاء للعقل والجسم.

ويجب أن نلجأ إليه من وقت لآخر، بل يجب ألا ننام إلا بعد الاسترخاء؛ أي يجب ألا نطلب النوم ونحن في التوتر نحس الكرب والضيق؛ لأن نومنا عندئذٍ لن يكون استجماماً؛ إذ هو سيمتلئ بأحلام الكابوس، فنتشاجر وننساب في النوم، ونستيقظ مرهقين متعبين. قد يرد القارئ بأنه لا يتمالك توتراته قبل النوم، وجوابي هنا: «اكذب على نفسك»؛ أي في اللحظات الأخيرة وأنت تشرع في النوم، وقد تمددت واسترخت على الفراش، قل

لا تكن في حرب باردة مع نفسك

مثل هذه الكلمات الإيحائية أو ما يقابلها من ظروف حالتك: «أنا مرتاح، في استرخاء تام، سأنا نوماً عميقاً مريحاً إلى الصباح.»

قل هذه الكلمات نحو عشرين مرة وثق أن عقلك الباطن يسلم بها؛ لأنك عندئذ لن تكون نائماً فقط بل منوماً أيضاً تقبل الإيحاء.

ولكن تذكر أن الاستجمام السيكولوجي الأصيل يقتضي تخلصك من همومك وتوتراتك، ولن يكون هذا إلا إذا راجعت حياتك وزنت كفأتك وفلسفتك، والفلسفة هنا لا تنقص ضرورتها لك عن الخبر.

لا تكن في حرب باردة مع نفسك، فإن نفسك هي إنسانة جسمك، ولا تشر في نفسك عواطف الطموح المسرف، والحسد والغيرة، والرغبة الجامحة في النجاح والاقتناء.

ثم ما ينتج عن هذه كلها من عواطف القلق والخوف إذا لم تتحقق، ثم التوترات فالانهيار.

قاوم روح الحضارة الانفرادية فلا تتركها تكتسحك، وفكّر في الحب والقناعة، وخذ بفضائل عليا جديدة، وأعظمها أن النجاح الصحيح هو صحة النفس والجسم، مع النمو في الثقافة والتوسيع في الوجودان، والحب للطبيعة والناس، والاعتماد على العقل دون الانسياق مع العواطف.

وأخيراً لا تنس أن غذاء نفسك هو الفنون، فتعلم فناً ومارسه، وكن ذكيّاً، وأعلى أنواع الذكاء هو الإنسانية.

النعم المقيم

كان عبد العال بقالاً صغيراً يعيش من دكان حقير في زاوية منسية في حي وطني، وكان يبيع البقول المختلفة من الدكاكين الكبيرة، وهي سقط البقول يشتريها سقط الناس، وكان يعيش مع أمه التي تجاوزت الخمسين والتي عرفت من حياتها المديدة الماضية كيف تستغل القرش والمليم إلى أقصى حدودهما في شراء الخبز البائت والبصل والفجل، وكيف تصنع المخلل، وتطبخ نصف الرطل من اللحم مع بعض البقول فتخرج منه أطباقاً من الطعام الشهي.

وكانت هي وابنها عبد العال راضين بهذه العيشة، لا يطمعان في أحسن منها؛ إذ لم يكن هناك منفذ إلى ما هو أحسن.

ولكن الحظ الذي يرفع ويحط نزل ذات يوم على عبد العال بما يقارب عنده ليلة القدر؛ فإن عمه مات فجأة بلا وارث، وكان يملك منزلاً يغل سبعة جنيهات في الشهر. وتسلم عبد العال المنزل، واشترى بدلة أوروبية، وخلع الجلباب وأصبح عبد العال أفندي، وكبر دكانه وازدحم بالبقول الحسنة واستخدم صبياً.

وتسامع الساكنون القريبون منه بقصته: الميراث والبدلة والصبي، وطمحت عيون الفتيات إلى الزواج منه، وأصبحت أمه مقصودة تزورها سيدات الحي، اللائي لم يكن قبل ذلك يعرفنها، ومع كل منهن ابنتها التي تجاوزت العشرين أو كانت دونها بقليل. ولم يمض قليل على وفاة العم الموروث حتى كان عبد العال أفندي قد تزوج، وبعد أقل من عام كان يستمتع برؤية ابنه زكي طفلاً جميلاً.

وتجمع عبد العال أفندي من متجره ومن المنزل الموروث نحو ثلاثة جنيه، بني منها زيادات على المنزل، ووسع متجره، وأصبح يحس كبراء جديدة فلا يحيي أصدقاءه القدماء، ولا يتعرف إلا بالكبارء من الموظفين الذين يزيد مرتب أحدهم على

عشرة جنيهات في الشهر، وكان يحس أنه يفضلهم؛ لأنّه كان يكسب من المتجر والمنزل نحو عشرين جنيهًا في الشهر.

وكان الطفل زكي يقضي معظم وقته مع جدته التي كانت تدّه وتملؤه سرورًا وضحكًا وتمازحه وتندغدغه؛ لأنّ أمّه كانت مشغولة بتبيّر المنزل وبزيارات الصديقات. وبقي إلى سن السادسة وهو لا يكاد يعرف أن له أمًا غير الجدة الحبيبة إلى قلبه، وكانت الخادمة تذهب به كل أسبوع إلى متجر أبيه حيث كان يعطيه في عجلة القليل من الحلوى بعد أن ينهر الخادمة؛ لأنّها جاءت به إلى، ثم يأمرها بالعودة إلى المنزل.

ولما بلغ السادسة أدخل في الروضة، وفي هذه السنة نفسها ماتت جدته. وأحس الصبي فراغًا نفسياً لم يفهم منه غير الصيابة التي كانت تحمله من وقت لآخر على أن يقعد سابحاً في فكره ينظر إلى غرفة جدته التي طالما لعب فيها ومرح وضحك.

وكان أبوه، الذي ترك المدرسة وهو في السنة الثالثة الابتدائية، يحقد على كل الذين استطاعوا إتمام دراستهم في حين هو عجز عن ذلك لفقر عائلته، وكان ينظر إلى الموظفين الذين هم دونه في الكسب نظرة الغيرة؛ لأنّه هو بقال أمّا هم فموظفو محترمون.

وهذا الإحساس جعله يرصد اهتماماته وأطماعه في ابنه زكي، وأنّه يجب أن ينشأ النشأة العظيمة حتى يصل إلى الجامعة ويخرج منها ويوظف، فكان هو وزوجته يتناولان هذا الصبي المسكين بعد عودته من المدرسة بالإلحاد عليه في «المذاكرة»، وكانت أمّه تتساءل إذا غاب عن ميعاد العودة من المدرسة بدقائق: أين كان، ولماذا تأخر. وكان الصبي يقعد إلى كتبه ودفاتره فيذاكرها، فإذا انتهى منها لم يجرؤ على تركها كي يلعب مع أولاد الشارع ولم يجرؤ على النوم، فكان ذهنه يسرح في خيالات لذينة تعوضه من سأم المذاكرة، ومن هذه العقد المعدبة وهو مربوط إلى مكتبه الصغير لا ييرحه.

وكان أبوه عندما يحضر من دكانه يقول له، حتى وهو يراه قاعداً مشغولاً بالذاكرة: ذاكر، ذاكر، ذاكر، بل إنه حضر ذات مرة في الساعة الثامنة وكان زكي قد نجح في الشهادة الابتدائية والتحق بمدرسة ثانوية فوجده نائماً فايقظه وطلب منه أن يذاكر، ويذاكر، ويذاكر.

وقضى زكي السنوات الخمس بالمدرسة الثانوية وهو يذاكر وينجح وينجح، وكان أبوه ينظر بعين النمر إلى سلوكه، فلم يكن يسمح له بالدخول في دار سينمائية أو بالخلاف عقب المدرسة للعب، أو بالتمازحة حتى وهو يتعشى مع والديه؛ ولذلك كان زكي أخيب الشبان في كل شيء إلا في المدرسة، وكان أيضاً مع نجاحه في المدرسة معطل الذكاء لا

يعرف هل ثمن الحذاء عشرة جنيهات أم عشرة قروش، ولا يستطيع أن يتخيّل أن أحداً في سنه يستطيع أن يسافر وحده من القاهرة إلى الإسكندرية، ولم يُعرف شيئاً من جمال البقول ونضرة الزرع والزهر. ورأى زكي بعض زملائه في المدرسة يدخلون ففعلاً مثلهم، ولما عاد إلى البيت أخبر أمه وهو يضحك بما فعل، ولكن هذه أخبرت والده الذي سلط عليه العصا الغليظة، وضربه ضرباً قاسياً، ورأه أبوه ذات مرة وهو يقرأ قصة غرامية فنزعها منه وضربه بقصوّة، ولم يكن يدخل البيت مجلة مصورة أو جريدة يومية أو قصة أو أي كتاب آخر غير الكتب المدرسية، ولم ينعم قط بنزق صغير أو كبير.

وتألّف زكي الشهادة التوجيهية وهو في حوالي السادسة عشرة وشرع أبوه يعده للدخول في كلية الآداب بالجامعة، وكان زكي كلما سمع عن الجامعة يضطرب؛ لأنها كلها مذاكرة، ولماذا لا يوظّف من الآن ويستريح من المذاكرة.

وكان يلجأ إلى فراشه في شهور الإجازة ويفكر في هذا العذاب المنتظر من الجامعة، وفي الرقابة الجهنمية التي كان يمارسها أبوه عليه حتى يقضي كل وقته في البيت في المذاكرة، فيحس كربلاً كأن جسمه ينبعض بالوجع، وكان قد عرف قبل سنتين العادة السرية، وكان كل ليلة تقريباً يسرّي بها عن كظمه وحبس عواطفه، وكان يتخيّل الخيالات اللذيدة، ثم يفوج عن نفسه بهذه العادة وينام مستريحاً.

أما الآن وهو في السادسة عشرة فقد غمرته الخيالات الجنسية وانغمست لذلك في هذه العادة التي صار يمارسها في اليوم الواحد نحو سبع أو عشر مرات، وأرهقته هذه العادة حتى كان يلهمث عندما يصعد على السلم، وشحب لونه وهدت قواه، وكان يخفي كل ذلك ويخشى من هذا الإخفاء نفسه، ويحس خجلاً وإجراماً كلما قعد إلى والديه أو أحد الغرباء، وكان عندما ينام يحلم أحلاماً لذيدة تتكرر كل ليلة بتتقيق خفيف أو بلا تنقيح، هي أنه يعود طفلاً يلعب مع جدته في الغرفة المقابلة، وكانت تحمله على ظهرها أو تطرحه وتدعنه حتى يكاد يموت من الضحك، وتطورت الأحلام عنده بعد ذلك فكان يرى نفسه وهو على جواد مذهب السرج واللجام، ثم يطير الجواد به فوق القاهرة، وجدته تتنظر إليه، وهو يقطع الجو. وفي الوقت الذي كان يستمتع الشبان في سنه بصبوّات النزق في السهر ومعاكسة الفتيات بكلمات جنسية، أو كانوا يرددون عن سألهم برأوية القصص السينمائية أو قراءة القصص الغرامية ويخرجن إلى الحقول حول القاهرة، أو يركبون البسيكليت أو يقضون شهراً على شواطئ الرمل وهم يغازلون البنات ويسبحون على الأمواج؛ في هذا الوقت كان زكي لا يعرف غير المذاكرة، المذاكرة، وكان هو ينجح

في المدرسة، وكانوا هم يفشلون. ولكنهم كانوا على صحة نفسية وعلى معارف دنيوية تفوق ألف مرة معارفه المدرسية؛ لأنهم كانوا يستطعون هذه الدنيا ويفطون إلى كثير من أسرارها التي خفيت وغابت عن زكي. كانوا ينامون ولا يحلمون، أو يحلمون بما ينفع من اقتحامات أو مصادفات محببة بالفتاة التي تعقبوها وتصدت عنهم بعد كلمة قاسية ما كان أذها وقعاً على نفوسهم. وبالسباحة، وبالسباق على البسكليت، وبالقصة التي قرعوها أو رأوها على الشاشة السينمائية وبالبنلة الجديدة وبالفسحة الجميلة في الريف. وكان بعضهم يمارس العادة السرية ولكن في تحفظ، مرة أو مرتين كل عشرة أيام، بل لقد قص أحدهم أنه منذ عرف فتاته التي يرافقها وينفق عليها كف عن هذه العادة لقدراتها وبعدها عن الشهامة، وكان بعضهم يدخن، كما أن بعضهم قد عرف الخمر، ولكنهم كفوا عن التدخين والخمر؛ لأن المتع الأخرى كانت أجمل وأروع. كانت صحتهم النفسية عالية، صحة الشباب وغرائزه، صحة النشاط الجنسي السليم والذهني السليم، وكانت الدنيا جميلة في أعينهم تحوي جمال الشفق، وجمال الشعر، وجمال القصة، كما تحوي جمال الفتيات، وزهوة البنلة الجديدة ومرح السباحة على الماء ولذة الحديث بالنكات المشتبهات مع الإخوان، وكانوا يستمتعون بالوجبة الدسمة والحلوى المريئة، جسم سليم ونفس سليمة.

وكانوا يتأخرون في دروسهم أو قد يساعدهم الحظ فلا يتأخرون، ولكن المدرسة لم تكن قط عذابهم كما كانت عند زكي الذي سبقهم؛ لأنه كان يكب على دروسه ولا يعرف أية متعة يفرّج بها عن صعوباته غير أحلام اليقظة وأحلام النوم؛ ولذلك كانت نفسه مريضة.

وقد لاحظت أمه أعراضًا فيه فتحت بصيرتها — بصيرة الأم — إلى أنه ليس على ما يجب أن يكون؛ فإنه في الصباح لم يكن يترك الفراش بل كان يبقى منسطحاً وعيناه إلى السقف، ولم يكن ينهض ل الطعام إذا دُعي، فإذا أفطر عاد إلى الفراش وعيناه إلى السقف، فإذا دُعي إلى الغداء نهض وتغدى وهو سارح الفكر لا يأكل شيئاً غير الطبق الذي أمامه، ثم يعود إلى السرير فينسطح وعيناه إلى السقف.

وكانت أمه تتأمله وتحاول أن تجره إلى الحديث، فلم يكن ينظر إليها وهي تحدثه، وانتهت أمه إلى القول أن هذه الحال ليست طبيعية.

أي أيتها الأم المسكينة إنك لم تكوني تدررين أنه كان ينتهك نفسه في اليوم، وهو حبيس غرفته، نحو سبع أو عشر مرات، ولم تكوني تدررين أنك أنت وزوجك السبب في هذا، بحبسه

ومنعه من أي نشاط إلا المذاكرة، ذاكر، ذاكر. وأنه لم يعرف أساليب التفريج الأخرى التي كان يمارسها الشبان، والصداقة والمزاملة مع إخوانه، والفسحة المارحة في شارع فؤاد، والاصطياف الجميل على الشواطئ، وقراءة المجلات والجرائد. لقد منعناه من كل ذلك فانحجز في الحجرة وانطوى على نفسه يأكلها ويغيبها.

وتمادي ذكي في غياب الذهن والانسياط على الفراش والاستسلام للأحلام، وقد أصبحت أحلام النوم عن جدته، ولعبه، وحديثه معها، والجواب الذي يركبه فوق السحاب في القاهرة، أحلام يقظته أو ما كان يظن أنها يقظته؛ لأنه لم يعد يقظاً؛ إذ كان في غيبوبة ذهنية دائمة.

ورويتاً رويداً أصبحت «لا» أو الصمت الذي يدل على معناها شعاره ومفتاح وجوده في الدنيا. قم كل: لا. قم البس ملابسك: لا. قم اغسل وجهك: لا. أو صمت تام لا يرد ولا ينبع بكلمة. حياة محبوسة، عواطف مكظومة، انحصار الذهن في المذاكرة الكريهة، انتقاء التفريج أو التنفيس. ماذا يفعل إزاء هذا كل؟

يفر من هذا الواقع المتعب المضجر المؤلم إلى الخيال، وأي خيال عنده أجمل من ذكرى جدته ولعبها وحديثها معه؟! لقد عاد ذكي فتى في الرابعة يعيش ليتحدث فقط إلى جدته ويبعد عنه رؤية الدروس والأم والأب القاسيين. والواقع أن أمه كانت تقف أمامه وتتضرع إليه كي ينهض ويأكل، فلا يرى وجهها ولا يسمع كلامها، وهو سعيد بهذا الذي فيه بخيالاته، ولكنه لم يعد إنساناً؛ إذ هو استحال إلى شبح إنسان فقط، يجتر خواطره وأحلامه عن السنوات الخمس التي قضتها مع جدته قبل أن يبدأ البرنامج الذي وضعه له أبوه كي يدرس ويدرس إلى الجامعة ويخرج منها ويصبح وزيراً أو وكيل وزارة.

وجاء الطبيب فطلب نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية، إلى المارستان. وصُعق الوالدان بهذا القرار، ورفضت الأسرة نقل ذكي إلى المستشفى وتعلقت الأم بابنها واحتضنته وهي تلهث من الوله، ووقف الأب وقد جمد عقله وعميت بصيرته لا يدرى علة كل هذا الذي حدث.

وقال الطبيب: هذا المرض هو الشيزوفرينيا، هو جنون يصيب الشبان المضغوطين الذين لم يطيقوا الحياة الواقعية ففروا منها إلى الخيالات والأحلام، هو الآن يحلم ويتخيل، وهناك أمل بالشفاء، ولكنه أمل ضعيف، وفي المستشفى مرضى مضى عليهم خمسون سنة بلا شفاء.

وتركتهم الطبيب بعد أن أفهم الأبوين أن ذكي في «نعم المقيم» يلتذ خيالاته وتأملاته.

سيكلوجية الشيخوخة

النصيحة العامة المألوفة للشباب هي أن يأخذوا بحكمة الشيوخ في التبصر والاعتدال والتأمل والبعد عن الرعونة والغامرة، وكل هذه بلا شك تُعد فضائل في بعض الأحوال، ولكنها ليست كذلك إذا أخذنا بحريتها في كل الأحوال؛ فإن هناك من المواقف ما يحتاج إلى المغامرة التي تشبه الرعونة. ولنضرب مثلاً بالثورات التي لا يتسع الوقت فيها للاعتدال المسرف أو التبصر بعيد. وكثير مما نزعوه إلى الشيخوخة من الفضائل إنما يُشتق في النهاية من الركود والجبن، كما أن كثيراً من رعونة الشباب أو مغامراته إنما يُشتق في النهاية أيضاً من النشاط والشجاعة.

وعلى كل حال يبدو لي كأننا قد أكثرنا من النصيحة للشباب بالأخذ بحكمة الشيوخ، وقد آن لنا أن ننصح للشيخ بأن يأخذوا بحكمة الشباب. وأعظم ما يبرر لنا هذا الانقلاب أن الشيوخ السعداء هم الذين يحتفظون بمقدار كبير من نشاطهم وشبابهم، وإن يكن نشاط الذهن وشباب النفس فقط. في حين أن الذين يكابدون أحزان الشيخوخة وأعباءها إنما هم الذين قد شاخت نفوسهم وركد نشاطهم.

ولكن الذي يجب أن نذكره أن النفس والذهن، كلاهما يحتاج إلى نشاط الجسم وحيوية الأعضاء؛ إذ ليس مفر من أن ترك نفوسنا إذا ركدت أجسامنا.

قد يُقال إننا، في الشيخوخة، نستطيع أن نهأنا بالحياة التأملية، نقرأ ونفك ونترجرج. وليس شك أن هذا كله حسن؛ فإن المداومة على الاهتمام بالصحيفة اليومية في سن الثمانين أو التسعين تبعث النشاط في الذهن، وكذلك الشأن في القراءة؛ أي الدراسة، ولكن حياة التأمل هي في النهاية حياة الركود، متى ركدنا بالجسم ركدنا أيضاً بالذهن.

وهنا حكمة الشباب التي يجب أن يأخذ بها الشيوخ، وضرورة النشاط بحيث تبقى أعضاء الجسم في حركة العمل التي تتطلب السعي على القدمين والذهاب والإياب وتحمل

المسئوليات اليومية أمام المكتب أو غير ذلك من ضروب النشاط في النفس والذهن، فتبقي الأهداف القديمة والمطامع السالفة والعادات المألوفة قبل الستين والخمسين من العمر ماثلة حية غير معطلة.

إن صاحب المتجر أو المكتب أو المصنع الذي يكف عن الذهاب إلى مقر عمله في الصباح، عندما يظن أنه قد بلغ سن الشيخوخة، يشرع فعلاً في الشيخوخة، ويبداً في حياة التفرج والتأمل الراكدين بدلاً من حياة العمل والتفكير النشطين، وهو يكاد ينقطع عن الدنيا بأهدافه وإحساسه. ومثل هذه الحال تملأ نفسه غمًّا وأسفًا، وهي جديرة بأن تنتهي به إلى ألوان مختلفة من أمراض النفس، وأولها أن يجتر ماضيه اجتراراً فيذكر ويعيد الذكرى بما حدث له قبل نصف قرن، وقد يذكر خصوماته القديمة فيبتئس بها ويتعرّض.

وكثيراً ما ترى هؤلاء الشيوخ وقد آثروا العزلة والانفراد، يكرهون الاجتماع والزيارات، وعندئذ ينكفؤون على أنفسهم ويحذّرون أنفسهم بكلمات مهموسة أو مجهرة. ونحن نعزّز ذلك فيهم إلى خرف الشيخوخة، وما بهم من خرف سوى أنهم معطلون جسمياً فأصبحوا معطلون ذهنياً.

إن للعمل اليومي في مواعيده — من طاقة واستعداد، ودراسة ومسؤولية — نظاماً يحمل رجل السبعين والثمانين على أن يأخذ في حياته بنظام آخر ينأى به إلى الاستهتار في الطعام والشراب؛ فهو يأكل بقدر، وهو يدخن أو يشرب القهوة أو الشاي بقدر. يلحظ في كل ذلك مصلحة عمله وقدرته، وهذا بخلاف الشيخ الذي عطل عن العمل فإنه يستهتر في طعامه وشرابه؛ إذ ليس عنده من الواجبات ما يحمله مسؤوليات تحته على الاحتفاظ بصحته ويقطّة ذهنه وسلامة عضلاته.

ومن هنا سرعة الانهيار الذي نجده في موظفي الحكومة الذين يُحالون على المعاش في سن الستين؛ فإن هذه السن تُعد في أيامنا من أطوار الشباب التي ننتظر فيها الصحة والنشاط، ولكن الموظف الذي وجد نفسه فجأة قد انقطع عن السعي كل صباح إلى مكتبه، وأنه لا يستقبل من يومه عند يقظته سوى الركود أو القعود على المقهى للتمطي والتثاؤب وحديث القيل والقال مع المعارف والأصدقاء، أو «قتل» الوقت بألعاب الحظ السخيفة، هذا الموظف لن تختفي عليه شهور بل أيام حتى يحس بنهاية حياته وأنه «زائد» على المجتمع يستهلك ولا ينتج، فتنهار نفسه ثم ينهار جسمه.

وأنا أتصح لموظفي الحكومة لهذا السبب بأن يستعدوا لمعاشرهم بأن يتعلموا أو يمارسوا هواية ما منذ سن الأربعين، حتى إذا بلغوا الستين وجدوا فيها عوضاً عن وظيفتهم السابقة، فيبقى كل منهم على نشاطه السابق له أهداف يحيا لها وبها.

يجب ألا تعني كلمة معاش مماثلاً؛ إذ هي تحمل معنى العيش؛ أي البقاء، ولا بقاء بغير عمل وسعي وحركة واشتباك في شؤون المجتمع والإنسانية والسياسة والإنتاج؛ أي يجب على الموظف أن يهتم بالدنيا والناس والأشياء وأن تتعدد اهتماماته، ويكون منها اهتمام مفرد هو هوايته الخاصة التي يمارسها لا للتسلية ولكن للارتفاع والإنتاج. يجب على الموظف ألا يرضي بأن يكون متفرجاً في الدنيا فقط بعد أن يبلغ سن المعاش.

ومع أنني أعتقد أن هناك تسعين في المائة على الأقل من الموظفين الحكوميين يمكنهم أن ينهضوا بأعمالهم ويؤدوا واجباتهم إلى سن السبعين بل أكثر؛ فإني لا أستطيع أن أقول بهذا الرأي؛ لأن شبابنا في حاجة إلى الوظائف الحكومية؛ إذ إن أعمالنا الحرة لا تستوعبهم، والأعمال الحرة هي الصناعة والتجارة وقد حرمناهم إلى وقت قريب.

وهناك ميزة للعمل الحر على الحكومي؛ لأن العامل الحر، سواء أكان موظفاً أم مالكاً، يمكنه أن يبقى عاملاً إلى ما بعد الستين؛ ولذلك يحتفظ بصحته النفسية والجسمية؛ لأن تنظيم عمله يؤدي، كما قلت، إلى تنظيم حياته، وهو يبلغ الشيخوخة دون أن يشيخ، أو هو، بكلمة أخرى، شيخ ولكنه ليس شائخاً.

ومع التناقض في هذا التعبير نستطيع أن نقول إننا وجدنا في اختباراتنا شباناً في السبعين والثمانين، بل أحياناً في التسعين، ينهضون في الصباح المبكر ويؤدون الأعمال التي تحتاج إلى قوة العضلات وصحوة الذهن، وهم في العادة نحفاء، بل إنني لا أذكر أنني رأيت رجلاً سميّنا قد بلغ التسعين.

ومن أعظم الأمثلة الحية على شباب الشيخوخة الأستاذ أحمد لطفي السيد؛ فإنه يوشك على التسعين ومع ذلك يحتفظ بنشاط ذهنه ويؤدي عمله الحكومي، يقصد إليه كل صباح ويعود منه بعد الظهر لا يبدو عليه أي عناء أو إرهاق، وهو من حيث الجسم لا تكاد أعضاؤه تتماسك، ولكن نفسه قوية عضلية، وهي تشع صحتها على الجسم. وإنني أعرفه منذ أكثر من خمس وأربعين سنة، ولا أذكر أنه سمن قط أو استكرش؛ إذ هو كان على الدوام نحيفاً إلى حد الهزال، وقد ساعدته هذه النحافة على استبقاء شبابه، كما أن عاداته في العيش معتدلة بعيدة عن الإسراف الذي كثيراً ما يرهق الصحة الجسمية، ولكن نحافة

جسمه واعتدال عاداته ليسا شيئاً إلى جنب نشاطه الذهني، وأنه يعمل كل يوم عملاً يحمله على نظام الحركة والتفكير في المسؤوليات، وهذا الحياة الحية.

ولي صديق آخر في منتصف العقد التاسع من عمره هو الأستاذ عزيز خانكي؛ فإنه يقصد إلى مكتبه كل يوم ويؤدي أعماله في مواعيدها، وهو نشيط الذهن؛ لأنَّه نشيط الجسم، يحضر في المحاكم ويدرس القضايا ويؤلف الكتب ويقرأ ويناقش ويستבק في شئون المجتمع، هو شاب لم يشيخ.

ومع كل هذا الذي ذكرت عن ضرورة النشاط الجسمي والذهني وضرورة القيام بعمل يستتبع المسؤوليات ويعين المواعيد، أحب أن أنبه إلى أن إيقاع الشيخوخة يجب أن يكون أبطأ من إيقاع الشباب. فإذا كان الشاب يستطيع الاستغناء عن راحة القيلولة مثلاً نحو ساعة بعد الظهر فإنَّ الشيخ يحتاج إلى هذه الراحة أكبر الحاجة.

ولكن الراحة يجب أن تكون ساعة واحدة في النهار وليس ٢٤ ساعة في اليوم.

سيكلوجية الشيخوخة أيضاً

ظهر في لندن كتاب جديد بعنوان «كيف تستقبل وتببدأ حياتك» للمؤلف إليانور بروكينث. واسم الكتاب يحمل دلالة جديدة لعصرنا هي أن الناس كانوا، قبل نحو نصف أو ثلث قرن، يستقiliون من أعمالهم أو وظائفهم عندما يبلغون الستين أو الخامسة والستين؛ وذلك لأنهم كانوا يحسون ضعفاً أو عجزاً ينقص كفاءتهم للعمل أو تأديتهم للوظيفة، وكانوا يكفون عن العمل أو يتذكرون الوظيفة وهم على إحساس بأنهم قد شرعوا يتهدّون للموت الذي قد يدركهم بعد خمس أو ست سنوات.

وكان هذا الإحساس صادقاً ينهض على المشاهدة؛ إذ كان معظم الناس يموتون قبل السبعين، هذه السن التي عدتها التوراة أقصى ما يمكن أن يطمح إليه الرجل السعيد في هذه الدنيا كما قال سليمان الحكيم.

وعلى هذا الأساس سنت جميع الحكومات المتقدمة – ونعني حكومات الأمم الصناعية وحدها – قوانين تنص على أن كلَّ من يبلغ سن الستين أو الخامسة والستين له الحق في الحصول على معاش طيلة حياته يترجح بين سبعة وعشرة جنيهات في الشهر، سواء أكان رجلاً أم امرأة، وزادت بعض الحكومات مقدار هذه المعاشات حتى إنها لتبلغ نحو أربعين أو خمسين جنيهًا في الشهر في بعض الولايات المتحدة أو بعض الحكومات الأخرى، مثل حكومات أستراليا أو زيلندا الجديدة أو كندا.

يحصل الرجل أو المرأة منذ سن الستين أو الخامسة والستين على معاش شهري إلى أن يموت في الثمانين أو التسعين أو المائة دون أن يُطالب بأي عمل، ولكن يجب أن نذكر أن هذا يحدث فقط عند الأمم التي اعتمدت على العلم والصناعة والاختراع والابتكار واقتحام المستقبل، الأمم الثرية الصناعية.

ولكن هنا المشكلة.

فإن إنجلترا شرعت تنفذ معاشات الشيخوخة منذ سنة ١٩٠٩ حين كان الناس يعتدون في التعمير ويموتون حوالي السبعين، أما الآن فإنهم يسرفون في التعمير، ويصلون إلى الثمانين والتسعين والمائة بلا أقل حياء من وزير المالية.

فلم يكن ينفق من ميزانية الدولة على هذه المعاشات في ١٩٠٩ سوى نحو ٢٠ مليون جنيه، أما الآن فإن المسنين يكلفونها مئات الملايين من الجنيهات. ثم هم في ازدياد؛ لأن متوسط الأعمار كان حوالي عام ١٩٢٠ لا يزيد على ٤٠ أو ٥٠ سنة، أما الآن فقد ارتفع في إنجلترا إلى ٦٨ للرجل و ٧٠ سنة للمرأة.

لماذا يعيشون ويلفون من العمر أرذله؟!

ومن أين تأتي الحكومة الإنجليزية، وغيرها من حكومات الأمم الصناعية العلمية الثرية، بمال كي تقدمه هدية آخر كل شهر للمؤيدين من المسنين ومن دونهم ومن فوقهم ممن تجاوزوا الستين.

ما أغرب هذه المفارقة! أوروبا وأمريكا تعانيان مشكلة الصحة والحياة الطويلة، وأسيا وأفريقيا تعانيان مشكلة المرض والحياة القصيرة. إنها المقارنة، بل مفارقة محزنة تلك التي نراها في مخليتنا بشأن المسنين في مصر والمسنين في إنجلترا أو أي قطر صناعي آخر.

إن الموظف المصري يستقيل من وظيفته وكأنه قد استقال من الحياة، فهو يمضي ما بقي من السنوات القليلة من عمره وهو في تخبط. يقع على المقهى قبل الظهر، ويشرب عشرات الفناجين من القهوة، ويدخن في إسراف، ويتحدث مع أصدقائه عن ذكرياته قبل ٤٠ أو ٥٠ سنة كأنه هو نفسه قد أصبح جزءاً من الماضي، وهو لا يشتراك في أحاديث السياسة الحاضرة؛ لأنها تنتهي على سياسة المستقبل الذي يحس أنه غريب عنه، وهو ينام بعد الظهر فإذا أفاق فكر في المقهى، وقد يشرب الخمر ويسرف فيها؛ لأنها تنسيه حاضره التعس.

رجل المعاش نعرفه كلنا في مصر.

هو سمين متله مستكرش سيء العناية بملابسها، مشعث الشعر قد نبتت أعجاز لحيته، وهو يشكو.

يشكو الروماتزم، والكليتين، والإمساك، والقلب.

ويشكو سأمه من الحياة كأنه ليس له مكان فيها.

ويشكو سوء المعاملة التي يلقاها من زوجته وأبنائه، إنه زائد غير نافع.

ويشكو إسرافه في التدخين وإسرافه في الطعام وعجزه عن الاعتدال. ويشكو استهتار الشباب والفتيات وأنهم لم يعودوا يبالون بالتقاليد حتى إن إحدى الفتيات في أسرته قد صرّحت بأنها لن تتزوج إلا من شاب تحبه، أما هو ففي أيام شبابه لم يكن يعرف كلمة الحب، وقد اختارت أمه له زوجته، وهو حين ينهض من المقهى ويذهب إلى منزله يسير مطأطئاً كأنه يمشي إلى جنازته وقد تلف بكتفه. هو ميت قد تأخر دفنه، ولذلك لا يستحق معاشاً؛ إذ هو يخدعنا بأنه حتى مع أنه ليس كذلك.

ولكن مع هذه الكلمات والأفكار القاسية نحس رحمة نحوه؛ ذلك أن أسلوب حياته الذي عاش به في شبابه قد لزمه بعد ذلك فيشيخوخته، وكأن العمل الذي ينتجه أو الوظيفة التي يؤديها يخفيان عنه وعننا تفاهته، ولكنهما كانا يشغلانه فيجد الاهتمام والالتزام في الحياة.

أما الآن، بعد زوال العمل والوظيفة، فإنه أمامنا، تافه أمام نفسه، وهذه هي مأساته. قارن رجل المعاش هذا المصري ب الرجل المعاش الإنجليزي مثلاً. فإن هذا الثاني قد اتخذ أسلوبًا للحياة أيام شبابه لزمه بعد ذلك مدة الشيخوخة، فوجد في سن السبعين والثمانين اهتمامات والتزادات ورياضات لا يجدها زميله في مصر. فهو أيام شبابه تعود الرياضة؛ ولذلك هو يلعب التنس بقوّة العادة وهو في السبعين. وفي أيام شبابه اعتاد المطالعة وشراء الكتب والاهتمام بالآراء ومناقشة الأفكار؛ ولذلك هو في الشيخوخة، بقوّة العادة أيضًا، يمارس كل هذه الأشياء في لذة ونشاط.

وفي شبابه كان يقرأ الصحف ويعرض لبرامج الأحزاب ويناقش السياسة الداخلية والخارجية؛ ولذلك هو في الشيخوخة يمارس السياسة ويشتراك في الأحزاب ... وفق ما تعود أيام شبابه.

كل هذه الشؤون تملأ فراغه وتشغل وقته واهتمامه؛ ولذلك هي تستبقي شبابه. فالشيخ الإنجليزي في الثمانين لا يركد ولا يستسلم للكلسل؛ لأن شخصيته أيام شبابه هي نفس شخصيته أيام شيخوخته، بحواجزها ومطامعها وعاداتها.

إذا كانت عاداتنا في الشباب سيئة فإنها سوف تكون أسوأ في الشيخوخة، ومتاعب المسنين عندنا إنما ترجع في الأغلب إلى أن شخصياتهم التي تكونت في شبابهم كانت ولا تزال دون الوفاء بحاجاتهم النفسية والروحية.

هناك وحدة سيكلوجية بين الشباب والشيخوخة.

أرجو القارئ ألا يفهم مما قلت أنني أعمل جميع عاهات الشيخوخة عندنا، سواء أكانت نفسية أم ذهنية أم جسمية، بأسلوب الحياة الذي يختاره كل منا. ذلك أن هناك ظروفاً مدنية وثقافية واجتماعية تتعسنا فيشيخوختنا، كما أن ظروفاً أخرى مما تضارع ظروفنا تسعد الأوروبيين والأمريكيين.

فإننا في مصر مثلاً نمرض أكثر من الأوروبيين؛ لأن مدنا قذرة؛ ولأن طرقنا في طهو الطعام سيئة؛ ولأننا فقراء لا نحصل على مقدار البروتين الذي نحتاج إليه في طعامنا. ومرجع ذلك كله إلى التراء والتمدن، ثم إلى المهندسة التي جعلت المدن نظيفة تجري فيها شرايين المياه المطهرة، ثم إلى الطعام الوافي الذي نعرفه عند الإنجليز أو الأمريكان حين يأكلون اللحم ثلاثة مرات في اليوم.

فقرنا يتعد شيخوختنا. وليس الشيخ المسن مسؤولاً عن هذا الفقر، وإنما تعود المسئولية هنا إلى أولئك المستعمرين والمستبددين الذين حتموا علينا الفقر بأن حظروا علينا الصناعة ونهبوا كنوزنا الزراعية والمعدنية.

وكذلك تقدم الطب في أوروبا حتى كاد يشفى جميع الأمراض الميكروبية، وأوشك على أن يشفى أيضاً جميع الأمراض الانحلالية، فطالت الأعمار واستباقت الشيخوخة مقداراً كبيراً من صحة الشباب ونشاطه. تأمل أيها القارئ كيف اختلفنا.

نحن نعاني في مصر مشكلة المرض والأعمار القصيرة. وهم يعانون في أوروبا وأمريكا مشكلة الصحة والأعمار الطويلة. ذلك أنهم يؤدون معاشًا لكل من تجاوز الستين أو الخامسة والستين. وقد كانوا يؤدون هذا المعاش في إنجلترا لحو خمسة ملايين مسن ولكن الصحة تتقدم؛ ولذلك لن تمضي سنوات حتى يبلغ عدد هؤلاء المسنين عشرة ملايين يحتاجون إلى المعاش.

وكل مثل هذا في سائر الأقطار المتقدمة.
أليست هنا مشكلة؟!

بحدا هذه المشكلة نراها في بلادنا. نعم، ولكن ليس الآن ونحن في فقرنا الحاضر؛ إذ لن نستطيع أن نؤدي المعاشات السخية للمؤمنين ومن فوقهم ومن دونهم.

قلت إننا لن نسعد بالشيخوخة إلا عن طريقين:

الطريق الأول: أن نصبح أمة عصرية صناعية متقدمة، فيتوافر التراث، ونحصل به على الحسن أو الأحسن في الطعام والمسكن والهندسة المدنية؛ لأن المدينة النظيفة لا تقل قيمتها في الصحة العامة عن المسكن النظيف، بل لعلها تزيد، وهذا كله من واجبات الدولة والمجتمع.

والطريق الثاني: هو الواجب الشخصي؛ أي ما يقوم به الرجل أو المرأة نحو نفسه حتى يعمر العمر الطويل.

ولكن العمر الطويل لا يعني أن نزيد الحياة سنين، وإنما هو يعني أن نزيد السنين حياة؛ إذ ليس هناك سوى العذاب والهوان في أن نمضي شيخوختنا مع الشلل أو الروماتزم أو الأرق أو العمى أو الصمم.

وأمراض الشيخوخة ليست ميكروبية وإنما هي انحلالية، حين تعجز الكليتان أو القلب أو الكبد أو الشرايين عن التأدية الحسنة لأعمالها. ومن شأن هذه الأمراض الانحلالية أنها تتسلل صامتة خفية، وهي في كل حالة ثمرة أو ثمرات لعادات سيئة في العيش، مثل النهم إلى الطعام أو الإفراط في الجهد إلى حد الإرهاق أو السهر الطويل أو التعرض للبرد أو نحو ذلك.

ونحن بالطبع سنبعد آخر العمر بأحد هذه الأسباب أو بغيرها، فليست هناك وقاية تامة من الانهيار الأخير ثم الموت، ولكن يجب ألا تطول مدة الانهيار كما يجب أن نصل إلى التسعين أو المائة ونحو ذلك في صحة وشباب.

وأحياناً أتأمل الصحة والمرض في الشيخوخة فأنتهي إلى الإحساس بأن صحة المسنين هي حكمة؛ أي إنهم كانوا حكماء في عيشهما أيام شبابهم وكهولتهم. فاتجهوا اتجاهات معينة في الشباب صانت صحتهم ثم لزمتهم هذه الاتجاهات في الكهولة والشيخوخة فصانتهم بعد السبعين والثمانين.

وأعظم ما يسعدنا في الشيخوخة أن نتعلم في شبابنا كيف نشغل فراغنا بغير العمل الذي نرتزق منه؛ أي بهواية معينة، وقد تكون هذه الهواية هي نفسها العمل الذي نرتزق منه. وهنا السعادة العظمى.

حياتهم تافهة

من أعظم الدراسات التي حفلت بها حياتي واتسع بها وجداي صناعة التطور، فإنها أكبرت في نظري من شأن الإنسان وجعلتني أنظر إلى تاريخه الماضي وأستطلع في ضوئه تاريخه المستقبل.

وأمتئ بذلك إحساساً بعظمته وأتفاءل بتطوره القادم. وأكثر من هذا، أن التطور جعلني أحس خطورة حياتي وقيمتها العظيمة، وأقارن بين هذه الحضارة التي اخترناها منذ خمسة عشر ألف سنة وبين حياة الغابة حين كنا أحرازاً نصيد السمك أو نقتل الحيوان أو نقلع الجذور، ونحول في أنحاء العالم، نصطدم بالأسد أو الأفاعي أو سائر الوحش ونعيش في مخاطرات متواتلة تذكّي عقولنا وتحد من عيوننا.

كنا وحشاً أحرازاً على وجдан بالأخطار وعلى مسرات متواتلة بالانتصار عليها أو بتخطيها. أما الآن فنحن، بعد اكتشاف الزراعة على النيل منذ عشرة آلاف سنة، قد استئمنا إلى نظام يجعلنا آمنين من الفزع، نحصل على اختباراتنا من الكتب بدلاً من الطبيعة، بل إننا بالزراعة قد أحلانا الطبيعة إلى حقول مالية تنتج القمح والقطن، كأننا نحاسبها بالقرش والمليم.

ولكني حين أتأمل حياة بعض الناس في هذه الحضارة أجده حقارة أو تفاهة تجعلني أحس أن الغابة القديمة بكل ما فيها من أخطار كانت أشرف وأدعى إلى نشاط الفكر والجسم من حالي الحاضرة، وأن الحضارة عندهم ليست كسباً وإنما هي خسارة وخسارة وضعة.

لقد قلت إننا في الحضارة نحصل على اختباراتنا من الكتب، ولكن هؤلاء القارئين للكتب هم القلة، أما الكثرة فيعيشون بلا كتب، ويضيق وجدهم بحيث لا يتجاوز أحياً البيت الذي يسكنونه أو الشارع الذي يسيرون عليه من المنزل إلى المكتب.

عرفت في ١٩٢٠ بوابةً لمبني كبير به نحو ثمانين مساكن، وكان وقتئذ شاباً لا يتجاوز الخامسة والعشرين، وقد قضى إلى الآن أكثر من ثلاثين سنة وهو على باب هذا المبني من الصباح حتى المساء، لا يزيد عمله اليومي على كنس السلم وعلى إجابة الأغراض عن السكان، وهل هذا الساكن قد خرج أو لا يزال بالمسكن، وكلما مررت به أقول لنفسي ألف مليون سنة.

أجل، إن هذا الباب قد احتاج إلى ألف مليون سنة حتى أخرجته الطبيعة إنساناً له رأس يحتوي تسعه آلاف مليون خلية للتفكير، ولكنها جميعها تقريباً معطلة، مع أنها كان يمكن أن تحل مشكلات أينشتين أو تكشف عن دواء جديد للسرطان أو تهتمي إلى تأليف حديد للانحلال والتكون في المادة.

يعيش هذا الباب حياة بلا قصد، ليس فيها برنامج، وهو من حيث الوجود البشري من يده إلى فمه، لا يعرف أنه في أفريقيا، وأن القارات خمس، وأن الشمس هي التي تجعل النباتات تنموا وتقيد القاهرة بالبقول كل يوم. وقد كنت أحب أن أُلْفَ قصّة عن حياة هذا الباب، قصة حقيقة، كيف يقضى يومه ثم كيف ينام في ليله وما هي أحلامه وعدد الكلمات التي يعرفها ويؤدي بها أفكاره، وظني أنها لا تزيد على مائةي كلمة، وهذه القصّة ستكون بالطبع مملة غاية الملل عند القراء، ولكن إذا كان سرد القصّة مملاً فكيف تكون العيشة الأصلية لهذا الباب، وأى ملل يجب أن تحتوى.

ولو أن هذا الباب كان يعيش في الغابة، لكن ينفر من الاقتحامات والانتصارات والألام والأحزان بما كان يملأ حياته و يجعله يعيش ناشطاً متحمّساً كأنه على مسرح يمثل دراما حافلة بالأحداث وال عبر، وكان ذكاؤه يحتد و عضلاته تشتت، ولكنّه على باب المبني قد ترهل حسماً و عقلأً.

وقد تفهمت حياته حتى لا أكاد أصدق أن الطبيعة قد احتاجت إلى ألف مليون سنة لتخريجها إنساناً سوياً.

وليس العبرة بفقره لأنه ليس فقيراً، بل الأغلب أن الآلاف من العمال في المصانع والمكاتب أفقر منه، ولكنهم أوسع وجدانًا وأعمق فهمًا لهذه الدنيا منه، فإنهم يختلطون بزملاهم أو بآبائهم، ويقرءون أكاذيب الصحافة وحقائقها، ويتحدثون عن الحرب القادمة، ويسيهرون على القهوة، ويشربون الشاي مع إخوانهم، ويلعنون التجار الجشعين، ويشاكرون عن الغلاء، وأحياناً يسكنون ويفرون.

أما هذا الباب فإننا قد أحلاه على باب المبني إلى حيوان أو جماد، وهو قانع بحياته، ولكن هذه القناعة هي إجرام في حق البشر، في حق التطور؛ لأن حياته تافهة، حياته بليقة.

و قبل نحو ثلاثين سنة، قبل أن يعم استعمال الطاقة الكهربائية، كانت مناجم الفحم في إنجلترا تستخدم الجياد في نقل الفحم داخل النجم؛ فكان الجواد يُؤخذ من المرعى الأخضر، حيث كان النسيم يداعب معرفته، أو كانت الريح تهب عليه وتهزه في غضب، وكان يرى الشمس وظلام الليل، ويجرني ويمرح ويرفس في حياة نشطة. وكان يرى الأئم ويصبو إليها، وكان يجر عربة من قرية إلى أخرى أو يمتطي صهوة صاحبه. ولكنه كان، بعد أن ينزل إلى جوف المنجم، يبقى فيه في الظلام الدائم نحو عشرين سنة لا يرى نور الشمس، ولا يصعد على سطح الأرض إلا بعد أن يموت.

وهذه حياة تبعث السخط والغضب على الذين كانوا السبب في حبس الجواد. ولا يمكن مؤلفاً أن يقص على القارئ قصة هذا الجواد المسكين؛ إذ إن القصة يجب أن تسرد لنا حياة أو حيوانات معينة. ولكن هذا الجواد يموت منذ نزوله في المنجم؛ إذ هو لا يحيا، ولكنه يجر عربة عربة الفحم فقط.

ولكن أحياناً أتأمل حياة بعض الناس فأجد الفرق بينها وبين حياة هذا الجواد ليس عظيماً. فإن مساحة المنجم الذي كان يعمل فيه هذا الجواد كانت نحو ميل مربع، ومساحة الميدان الذي يعمل فيه بعض الناس لا تزيد على ثلاثين أو أربعين متراً مربعاً، وهم بهذا الاعتبار موتى. ولو أردت أن أقص على القارئ حياة واحد منهم لما قدرت؛ لأنها حياة الأكل والنوم وكنس البيت والعناية بالطفل.

أجل هذه هي حياة بعض نسائنا في بعض قرانا في الصعيد؛ فقد لقيت بعض إخواننا الصعايدة الذين كانوا يفخرون بالعرض والشرف والطهارة؛ وذلك لأنهم قد اعتادوا أن يجعلوا الزوجة تبقى بمنزلها منذ عرسها إلى يوم وفاتها، حتى لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، وزوجها يحيطها بهذا الحبس إلى مكانة دونها مكانة الباب الذي أشرت إليه؛ لأن الباب يرى العابرين في الطريق، وقد تقع حادثة أو ينشب شجار، أو يقعد إليه زائر أو يتحدث إلى ساكن. أما هذه المسكينة فتبقي طيلة حياتها وهي محبوسة بالمنزل، وظني أنها تختجل بعد سنوات من هذا الحبس، ولا يبقى لها ذكريات تبعث على التفكير سوى أيام طفولتها وبنوتها.

وظني أننا يجب أن نسن قانوناً نجبر فيه الأزواج الحابسين لزوجاتهم على أن يأندوا لهن بالخروج من المنزل مرة كل يوم. وإنني لأتساءل: هل احتجت الطبيعة إلى ألف مليون سنة من التطور كي تنتهي منه إلى حبس إنسان مدى حياة الزوجية بدعوى العرض والطهارة.

الباب، وهذه الزوجة الصعيدية، كلامها يعيش حياة تافهة، حياة بلا قع. تنخفض التفاهة عندهما إلى حد العجز عن تأليف قصة عن أحدهما؛ إذ ليس لأحدهما اختبارات، لا أخطار ولا اقتحامات ولا أخطاء ولا إصابات، ولا سعادة ولا شقاء، يمكن أن نرويها للقارئ. هي حياة بلا عبرة وبلا دلالة، هي حياة ملغاً، أو هي لغو لحياة. ولذلك فكرت في أن أُولف قصة عن حياة أخرى تافهة، ولكنها تحتوي شيئاً من الاختبارات ترفعها إلى مقام الاهتمام عند القارئ.

هي قصة شاب نشأ في عائلة ثرية في مصر، فلم يتعلم لأنّه كان مدللاً أو هو تعلم القراءة ولكنه استغنى عنها، فكان لا يشغل بها فراغاته، ووقته كان كله فراغاً. فلما بلغ العشرين جعل يصيّد الفتيات ويتنزه وإيابهن في السيارات، ثم عرف بعد ذلك عاهات الترف، حين تكثّر النقود أو تزيد على الحاجات، فيجد اللذة في إنفاقها على التفاهات ويعود هو بعد ذلك تافهاً يمارس التفاهة في جد وعرق.

كان ينفق كل ليلة على الانغماسات الكحولية والجنسية نحو عشرة جنيهات؛ أي كل دخله. وكان يعود إلى بيته بعد منتصف الليل ويستيقظ في الصباح كي يتوجّل بسيارته أو يكالم صويحباته في التليفون. وحاولت أمّه أن تكفه فكان ينهرها، ثم بعد ذلك صار يضرّبها حتى كفت.

وماتت أمّه وفرح بموتها كثيراً، وأصبحت لياليه حمراء حافلة بالانغماس، ولم يكن يجالسه غير إخوان لهم مزاجه ولا يرتفعون على مستوىه، وكان حديثهم نكات وأحاديث عن الفتيات والراقصات والهدايا التي اشتراها أحدهم لحظيّته الجديدة، وقد سمن لوفرة الطعام الذي كان يأكله وللراحة الدائمة التي كان يجدها. وكانت الأحداث تمرّ بمصر، مظاهرات ومفاوضات وزارات، ولكن كل ذلك لم يكن يصل إلى وجدها؛ لأنّه كان يعيش بحواسه دون عقله.

وأخيراً تزوج راقصة كان عشقها طويلاً، وحملته الراقصة على أن يشتري لها من الأحجار اللامعة التافهة الغالية ما بلغت قيمته الألوف من الجنيهات، ثم أحبّت غيره وأحبّها هذا الغير. وذات يوم حمل هذا مسدساً وطلب إليه أن يطلقها، واشتبك الاثنان، وأخيراً طلّقها.

ثم أحبّ امرأة أخرى وتزوجها، وتوالت حوادث زواجه أو عشقه حتى هوت ثروته إلى ثلث ما كانت عليه، وكان قد بلغ الثلاثين، فانقلب إلى زهد كان يعتقد أنه ديني، مع أن حقيقته أنه كان سينولوجياً؛ أي كان ساماً من الانغماس الجنسي السابق، كان صوماً بعد تخصّمه وهو مودعاً بعد جهد.

وقلت نفقاته فصار دخله يتواتر، وظن الناس فيه التدين، بل ظن هو نفسه ذلك،
فكان يشتري بما يتواتر من دخله أرضاً جديدة حتى استعاد ما فقده وزاد عليه.
وكان قد حصل بثرائه على احترام الكثرين، فتزوج ابنة أحد الكبار الذي سأله عنه
وعرف انغماساته السابقة واستقامته الحاضرة، وأحب زوجته لتدينه.

ولكنه مع كل ذلك كان معوج العقل؛ فلم يكن يعلم من معاني الدين إلا أنه الامتناع
عن الخمر أو الزنى بالرقصات؛ وكان لذلك لا يجد حرجاً في مضاية مجاوريه من المالكين
الصغرى حتى كان يضطرهم إلى بيع أرضهم له، وقد باعوا له وافتقروا.
حياة تافهة حقاً، ولكنها تزيد على تفاهة الحياة عند ذلك الباب بأنها كانت خادعة
كما كانت ضارة، أؤذى بها المالكون الصغار حوله وجردوا من ممتلكاتهم القليلة. وكان
صاحبنا مع ذلك سادراً يظن أنه تقي صالح.

أوديب صبياً

هذا الفصل هو «محضر» أو محاضر تحقيق للمعالجة النفسية أحب أن أنقل النقطة البارزة فيها؛ كي يقف منها القارئ على أسلوب البحث وتحري الحقائق ووسائل العلاج كما يمارس كل ذلك المختصون في المعالجة النفسية، وأنا أنقله عن كتاب «حقول جديدة في المعالجة النفسية» للدكتور دافيد ليفي من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة. ولست أهدف من ذلك إلى طرافة البحث وإنما إلى منفعة القارئ في استبصاره بالمرض النفسي، كيف ينشأ خفيًا متسللًا وكيف ننبش عنه حتى نخرجه ونطرده، وأنا هنا ناقل محайд.

موضوعنا هنا صبي بلغ الثالثة عشرة من عمره؛ أي سن المراهقة. كان إلى هذا السن متقدماً في دروسه بل متفوقاً، كما كان على أخلاق سوية، مهذب اللفظة والإيماءة يحبه زملاؤه كما يحبه معلموه، يواكب على استذكار دروسه ويلعب مع سائر التلاميذ ويؤانسهم ويلتذ الحياة المدرسية والحياة البيتية أيضاً.

ولكن بعد هذه السن؛ أي في الشهور التي أعقبت المراهقة وهو لا يزال دون الرابعة عشرة، تغيرت أخلاقه وساء سلوكه فتختلف في الدراسة، وبعد أن كان مهذباً في كلماته وإيماءاته صار وقحاً تجري على لسانه كلمات جنسية بذئبة بل فاحشة، كما كان يشير بيده إشارات دنسة. وشكاه زملاؤه إلى ناظر المدرسة، وهدده هذا بالعقوبات الصارمة، وتكررت الشكاوى وتكررت العقوبات. وأخيراً فكر الناظر في فصله من المدرسة، ولكنه قبل هذا القرار الحاسم، رأى أن يستشير أمه ويبحث معها هذه الحال الجديدة التي طرأت على الصبي.

وجاءت الأم، وجرى الحديث بينها وبين الناظر، وأنكرت هي اللغة البذئية التي قيل لها إن ابنها يستعملها مع زملائه؛ إذ كانت هي لا تعرف من ابنها سوى أنه مهذب كامل،

ولكنها اعترفت بخلافه وأسفت على ذلك، وزعمت في النهاية أن ابنها إنما «فسد»؛ لأنه اخترط بصياغ لم يتهذبوا، وأنه تعلم منهم عاداته السيئة الجديدة. وهدد الناظر الأم بفصل ابنها من المدرسة، وهذا أخطر ما يمكن أن يقع بصبي في سن الثالثة عشرة، وتركته الأم وهي ترجوه أن يتربى وأن يعطي ابنها فرصة أخرى لعله يعود إلى استقامته السابقة.

وعادت الأم إلى بيتها، وعادت الرحمة إلى قلب الناظر.

وفكَّر الناظر في الفحص الطبي النفسي على الصبي، وهو يرجو أن يجد به علة يمكن أن تُشفى فلا يحتاج إلى فحصه.

والعادة — ولا تنساها هنا أيها القارئ — أنه قبل الفحص الطبي النفسي عن المريض أياً كان يجب أن يُفحص جسمه؛ إذ لعل هناك مرضًا خفيًا هو الذي أحدث التخلف عند هذا الصبي؛ فقد كان ذكيًا ثم صار بليدًا، فلماذا؟

جاء الطبيب ففحص عن الحلق والأتف، عن الزوائد واللوز، فلم يجد شيئاً، وفحص عن عينيه فلم يجد شيئاً، ثم فحص عن النقص الفيتاميني فلم يجد شيئاً، ثم فحص عن الدم فوجد هناك شبهة بأن الصبي يحمل في جسمه جراثيم المرض الزهري المعروف باسم السفلس. وسأل الطبيب واستقصى، فعرف أن والد الصبي مات بالنقطة وهو في حوالي الأربعين من العمر، وأن أمه أجهضت مرتين أو ثلاثة قبل وفاة زوجها بدون إرادتها، فرجم من هذه الظروف أن الأب كان مصاباً بالسفلس وأنه ترك جراثيم المرض في ابنه، وأن الزعزعة النفسية الأخيرة التي ظهرت في الصبي إنما تعود إلى بدايات من الشلل الذهني الذي يبدو أحياناً في مَن يحملون جراثيم هذا المرض.

وهنا وجد الناظر والمعلمون أنهم إزاء بصياغ من نور يجب أن يتبعقوه إلى نهايته، لعل فيه الحل لحالة الصبي، ولعلهم يجدون الشفاء القريب، وطلبوا من أطباء آخرين الفحص عن الدم.

ولكن هذا الفحص الثاني أوضح لهم أن الصبي بريء من هذا المرض الزهري براءة تامة. وهنا نفخ الجميع أيديهم من شبهة المرض الجسمي؛ أي مرض السفلس. وعاد البحث إلى المرض النفسي.

وجاء أولهم — أول الأطباء النفسيين — وبحث وفحص.

وانتهى إلى تقديم تقرير قال فيه إن التفسير لخلاف الصبي واضح حين أخذت البلادة مكان الذكاء عنده؛ فقد كان الصبي إلى سن الثالثة عشرة قوي الذاكرة يفكر

بذاكرته، وكانت دروسه كلها إلى هذه السن استذكاراً فقط، فلما ارتقى إلى الصفوف العليا حيث الدروس تحتاج إلى التصور أكثر مما تحتاج إلى الاستذكار قصر وتخلف، فالمسألة إذن طبيعية، فإنه وصل إلى حدود ذكائه وليس له علاج. ولكن هذا اليأس لم يرض أحداً: لأننا إذا فرضنا أن التخلف «طبيعي»، فكيف نفسر البداء والفحش في الكلمات والإيماءات الجنسية الظاهرة؟ وهي كلمات وإيماءات لم يكن يعرفها هذا الصبي قبل الثالثة عشرة من عمره.

وأعيد الفحص النفسي على يد طبيب آخر.

وانتهى هذا الطبيب الآخر إلى هذه المقدمات والنتائج: هذا الصبي هو وحيد أمه؛ أي إنه نشأ مدللاً، لم يُصدم قط في طفولته بما يُصدم به الطفل حين يجد له أخوة في البيت، وكان لهذا السبب مهذباً بيته ويتمنى الدنيا التي رسمتها له أمه في طمأنينة وسلام. فلما ذهب إلى المدرسة وجد أجلافاً كباراً من التلاميذ يعتدون عليه، كما وجد حركة وصخباً. دافع عن نفسه بالكلمات والإيماءات البذيئة؛ لأنها تكتسبه سيطرة سهلة. ولو أن هذا الصبي كان قد أُرسل إلى مدرسة « خاصة» من مدارس الأثرياء حيث يجد في الوسط الجديد ظروفًا تشبه وسطه القديم في البيت، لما تخلف في الدراسة ولما لجأ إلى البداء والفحش.

ولكن هذا التفسير لم يقنع أحداً؛ إذ هو تفسير سطحي واضح السطحية. وجيء بالطبيب الثالث. وبحث وفحص. وانتهى هذا إلى القول بأن بالصبي بداية شيزوفرينيا. ويعني هذا المرض أن المريض ينفصل من الدنيا، نفسيًا، انفصلاً تاماً أو كالتام. فيهمل الواقع ويستسلم لخيالاته وأحلامه؛ وذلك لأنه يكره الواقع ولا يطيقه. وإنما كره هذا الصبي الواقع؛ لأنه خرج من بيته وهو مدلل عند أمه لا يجد أية صعوبة في الدنيا. كل شيء وُفر له، ووضع في مدرسة يجد فيها الصدمات تلو الصدمات من الدروس إلى المعلمين إلى الزملاء الأجلاف من التلاميذ، فشرع يتخيل ويهتم؛ أي شرع يتکاسل ويثناء. وربما ينتهي بالانفصال التام من الواقع ... أي الجنون.

ولكن الأم والناظر والمعلمين وسائر الأطباء النفسيين لم يقتنعوا بهذا التفسير بل عدوه سخافة؛ لأن الشيزوفرينيا لا تصيب الصبيان مثل هذه الأسباب الصغيرة بل التافهة. وفي كل إنسان منا قدرة على التكيف للأوساط الجديدة إذا لم يكن الاختلاف بينها وبين الأوساط السابقة كبيراً فادحاً.

وجيء بالطبيب الرابع، فبحث وفحص وانتهى بأن عند الصبي «مركب نقص»؛ ذلك أنه نشا وحيداً في نعومة ورفاهية وسهولة، ثم فوجئ بوسط المدرسة وما فيه من خشونة ومشاق وصبيان كبار، فأراد أن يتعرض عن نقصه بوقاحة اللفظة وفاحش الإيماءة. ولكن هذا التفسير لم يقنع أحداً أيضاً.

وأخيراً جاء الطبيب الخامس، جاء وهو يسير بخطوات كأنها وثبات من المرح والغبطة، وهو يقول: «وجدتها!»
ماذا وجد؟ وجد «مركب أوديب».
والتفتت العيون وانتبهت العقول ... الولد يعشق أمه.

قال الطبيب: إن الصبي كان سوياً إلى سن المراهقة حين شرع بعد ذلك في النشاط الجنسي الانفرادي، يقفل على نفسه الغرفة ويستسلم للخيالات الجنسية. ويقاد جميع الصبيان يفعلون ذلك في هذه السن، ولكن الذي وجده هذا الطبيب عند هذا الصبي أن خيالاته كلها وقت هذا النشاط كانت ترتكز في أمه، والصبي ينكر ذلك حين يكون في وعيه، ولكنه حين تسلط عليه الأسئلة وهو في الاسترخاء؛ أي حين يستسلم لعقله الباطن، يعترف بأن أمه هي موضع نشاطه الجنسي الانفرادي.

وأخذ الطبيب يشرح: وضعت الأم ابنها قبل ١٣ سنة. وكان عمرها وقتئذ ٢٢ سنة شابة حلوة، تضم الطفل إلى صدرها فيجد الطراوة والنعومة، وفي كل طفل نوازع جنسية مبهمة تعم الجسم كله تقريرياً، ثم تتحيز مكانها المعروف بعد ذاك في سن المراهقة. ولما مات الأب رأت الأم في ابنها «رجل البيت» الذي يقوم مقام والده، وكانت أيام والده تقدم له فطوره وهو في السرير، فلما مات والده صارت تفعل مثل ذلك مع ابنها، أليس هو الذي أخذ مكان أبيه في البيت.

ولما بلغ الصبي سن المراهقة وجد أن قامته تعلو قامة أمه، كما لو كان زوجها وليس ابنها.

ذكريات الطفولة، ذكريات النفس، قد انتعشت أيام المراهقة.
ولكن ماذا في كل مما يلقي شعاعاً على حاليه الحاضرة في تخلفه عن دروسه، وفي غرامه بالكلمات والإيماءات المفاجئة التي حملت ناظر المدرسة على التفكير في طرده من المدرسة؟
الصبي ابن وزوج، هذه حالة لا تُطاق.

هو بين حب وكفاح: حبه لأمه الذي لا يقدر على رده، والذي يتضح له من خيالاته وقت نشاطه الجنسي الانفرادي، وكفاحه حين يحاول أن يطرد من ذهنه هذا الحب الذي يعرف أنه دنس ونجاسة، وأن علاقته بأمه يجب أن تقتصر على الاحترام.

والصبي في عجزه يحاول في تعب وحيرة أن يحل اللغز.

وهو يحله بأسلوب الأطفال أو الصبيان: فإنه يدافع عن نفسه بكلمات فظة بذئنة عن الشئون الجنسية.

وإذن هو في اختلاط ذهني يعطيه عن الدرس، وهو في بذاء جنسي يدافع به عن موقفه السري.

ولكن ما هي نصيحة الطبيب هنا بعد هذا التشخيص؟

ينصح الطبيب بإرسال الصبي إلى مدرسة داخلية عدة سنوات حتى ينسى صورة أمه، أو ينصح للأم بأن تتزوج وتعقب له أخوة ينزعون منه موقف التدليل السابق الذي أدى إلى إحساسه الجنسي الحاضر.

وإلى هنا أقف، ولا أعلق؛ لأنني أحب أن يختتم هذا الموضوع، كما نقلته في أمانة، في ذهن القارئ بلا تدخل مني. وعلى القارئ أن يذكر أن البؤرة في سينكولوجية فرويد هي «مركب أوديب»؛ أي حب الصبي لأمه حباً جنسياً. وأنا هنا ناقل محايده لا أكثر.

الخمر والمخدرات الأخرى

جائني (في يناير من ١٩٥٦) خطاب مسهب أجزئ منه ما يلي:

... وأنا شاب في الثامنة والعشرين من عمري وجندى في الجيش، متزوج منذ سبعة أعوام ولدي ثلاثة أولاد، وقد أدمتني على تعاطي الأفيون منذ خمسة عشر عاماً، وكل نقودي تذهب في هذا المخدر الملعون الذي تعلقت به من رفاق الصبا، وعندى رغبة شديدة جداً في التخلص منه، ولكنى لا أستطيع مطلقاً التخلص منه ولو ليوم واحد، وأنا أحب زوجتى وأولادى جداً، ومن أجل هؤلاء أريد أن أتخلص منه، فأرجو أن تدلى يا سيدى الكاتب العظيم على الطريق الذى أسلكه. وقد التجأت إليك وأملي عظيم فى أن تهدينى إلى الطريق الذى أسلكه فى التخلص من هذا الداء ... وهل هناك أمل فى أن أتخلص من هذا المخدر، علماً بأننى لا أقوى على البعد عن أولادى بدخول مستشفى؟ وإنى على استعداد لتنفيذ كل ما تراه لكى أعود إلى حياة جديدة ...

هذا واحد من عشرات الألوف الذين يتعاطون المخدرات. ومع أننا قد أوجدنا قوانين قاسية، بل غاية في القسوة، لعقوبة المتجرين بالمخدرات والمعاطفين لها، فإننا ما زلنا نجد لهذه التجارة سوقاً سوداء في أنحاء بلادنا. وهذا برهان على أن قسوة القوانين لا تجدي في الردع، وإنما المجدي هو أن نبحث عن جذور الجريمة ونقتلعها من مكانها. وجذور الجريمة هنا أننا جمیعاً في مجتمعنا المتمدن نكاد نعيش على أعصابنا مرهقين متورقين، ونحتاج إلى المنبهات والمخدرات، ونحن نتناول منها القهوة والشاي والدخان والخمر، وجميعها مخدرات أو منبهات تتعش الجسم أو العقل أو تخرره بعض الوقت، وحكومات العالم المتمدن كلها تعارض في استعمالها.

ذلك أن حياتنا الاجتماعية العصرية تحتوي الكثير من التوترات التي لم يكن يعرفها أسلافنا في بيئاتهم الريفية المطمئنة. كما أننا نخلو من إيمانهم المطلق بالقدر ولا نرضى بالقناعة التي كانوا يرضونها؛ فإننا نحيا بمواعيد، ونصادف مخاطر، وننطمح وننقلق؛ ولذلك نحتاج إلى مخدر أو منبه؛ الأول يهدئنا فتنسى همومنا، والثاني ينبهنا فنتحمل همومنا.

وجميع الأمم الأوروبية تشرب الخمور فلا تحتاج إلى المخدرات مثل المورفين، أو الكوكايين، أو الهيرويين. وهي تبيع الخمور رخيصة فيجد فيها الفقير مثلاً يجد الثري مخدرًا حسناً يغنه عن المخدرات الفاتكة.

قد يقال إن إدمان الخمور يؤذى. وهذا صحيح، ولكن الإدمان وحده هو المؤذى. أما الاعتدال فلا يؤذى. بل الأرجح أنه ينفع شارب الخمر خاصة بعد سن الخمسين والستين؛ لأن الخمر تبسط الشرايين في حين أن القهوة والشاي والدخان تقبضها، ومن مصلحة المسنين أن تكون شرايينهم على الدوام منبسطة يجري فيها الدم، ويصل إلى الأنسجة التي كان يمكن ألا يصل إليها بسبب تصلب الشرايين الذي ينشأ عادة في الشيخوخة و يجعل مسیر الدم شاقاً أو قليلاً.

ورايموند بيرل في كتابه «الكحول» يؤكد أن الخمور تطيل الأعمار إذا تناولت باعتدال. وهذا هو اختبار جميع الأمم، حتى فرنسا التي يكثر فيها الإدمان المضر يكثر فيها أيضاً المعمرّون بعد الخمسين.

ونحن تجاورنا سوريا ولبنان وتركيا ويونان وكلها تقريباً – حتى على المنع بالقانون – تزرع الأفيون والحسيش، ولكن الفلاحين الذين يزرعونهما لا يتعاطونهما لسبب بسيط، هو أنهم يشربون الخمور التي تُباع في بلادهم رخيصة. وليس في الدنيا أسهل من صنع الخمور. ولذلك يصنعها هؤلاء الفلاحون ويسربونها ولا يوجد بينهم من يتعاطى الأفيون أو الحشيش اللذين يزرعونهما.

يجب أن نجا به الحقائق بلا عبث أطفال، ولنفكّر تفكيراً عضلياً.

الحقائق أن حياتنا مليئة بالقلق ونحن نحتاج إلى ما يرفرف عنا. وإذا كان قلقنا خفيّاً فإننا نقنع بالقهوة والشاي والدخان. ولكن إذا كان هذا القلق مرهقاً، حين نخشى مثلاً الإفلاس في مضاربات البورصة أن نشك في نجاحنا في عمل معين. أو نخاف على أبنائنا أو أنفسنا من مرض، أو نتوقع معاكسات، أو تداخينا شكوك بشأن صحتنا، أو حين تضطرم الغيرة من المنافسة القاتلة في نظامنا التجاري الاقتنائي في كل هذه الحالات نحتاج إلى ما يخفف عنا توتراتنا بمخدر، والخمر هي خير المخدرات.

وأنا أكتب هذه الكلمات بعقلية مدنية لا شأن لها بالأديان. وقارئ كلماتي إذا كان متديناً متحمساً لدينه يستطيع أن يهملها. ولكنني أحب مع ذلك أن أنبه إلى أن كثريين من رجال الدين يستطيعون - كما هو شأنهم على الدوام - إيجاد مخرج بالتأويل الحسن لصلاحة الصحة العامة.

ولذلك أعتقد أنه يجب، وجوهياً قاطعاً، على حكومتنا أن تيسّر للشعب شرب الخمور بأن تبيح صنعها وبيعها وإيجاد الحانات، مع الرقابة الدقيقة، حتى تُصنّع نقية خالية من الشوائب المؤذية. ولكن أعظم وسائل التيسير أن تُتابع رخصة.

وعندما تصبح الخمور صناعة مصرية عامة فإننا يمكننا أن نزرع نحو ربع مليون فدان أو أكثر من الكروم، تستخدم نحو ربع مليون عامل في زراعتها واستخراج الخمور منها. بل نستطيع أن نصدر من الخمور ما تبلغ قيمته ملايين الجنيهات للأقطار الأوروبية التي لا تنضج فيها الكروم كما تنضج في شمسنا وعلى أرضنا.

ثم في الوقت نفسه لا نخشى الأخطار المملاكة من الأفيون والمورفين والكوكايين والهيرويدين والحسريين. وأرجو القارئ لا يعتقد أني هنا جريء مخاطر. فإن الخمور تُتابع في كل مكان في مصر ولكن للأثرياء فقط، وذلك لارتفاع ثمنها. أما الفقراء فيعجزون عن شرائها. وليس هذا عدلاً.

فنحن نجيز بيع الخمور للأثرياء الذين يستغنون بها عن المخدرات، ثم نعاقب الفقراء لأنهم يشترون المخدرات المملاكة بدلاً من أن نرخص أثمان الخمور حتى يشتروها ويشربوها كما يشربها الأثرياء.

لو أن الخمور كانت تُتابع في مصر رخصة وفيه لما شقي هذا المسكين الذي شكا إلى تعاطيه الأفيون. وهناك آلاف مثله يعانون مثل نكتبه التي لا تعود نتائجها على شخصه وحده بل أيضًا على زوجته وأبنائه.

ولست أخيراً، أنكر أن ما نعانيه من قلق نستطيع أن نتخلص منه بالتحليل النفسي. ولكن مثل هذا العلاج يعد ترفاً لا يطيقه غير الأثرياء؛ إذ هو يتكلف كثيراً.

والخمور هي، كما قيل، صابون الهموم؛ أي علاج للقلق. وصحيح أنها ليست العلاج الأمثل، ولكنها خير من جميع المخدرات الأخرى. وإذا كانت توتراتنا الاجتماعية تطالبنا بالهروب منها بمصدر ما، فإن الخمر هي خير المخدرات.

وأحسن ما في الخمور أنها لا تطالبنا بزيادة الجرعة، فإذا كنا في سن الخمسين مثلاً نتناول ثلاثة كؤوس ونكتفي بها، فإننا نبقى على هذه الجرعة عشرين أو ثلاثين سنة

بلا تغيير. وهذا خلاف ما يحدث في المخدرات الأخرى التي نفتاً نستزيد منها حتى نبيت ضحاياها.

لقد جربت أمتان عظيمتان من أعظم الأمم المتقدمة في العالم تجربتين تستحقان التفاتتنا في صدد هذا الموضوع.

الأمة الأولى هي الولايات المتحدة التي منعت الخمور منعاً شاملاً وباتاً أكثر من عشر سنوات، فكان كلَّ من يصنعها أو يبيعها يُعاقب بأقصى العقوبات؛ فماذا كانت النتيجة؟! كانت انتشار المخدرات المهلكة الأخرى ... الأفيون والحسيش والهيرويدين والكوكايين والمورفين. وكان أيضاً بيع الخمور السليمة، بل السامة، التي يُصنع كحولها من الخشب. وعادت الولايات المتحدة، وهي نادمة، إلى إباحة الخمور.

هذه تجربة. والتجربة الثانية قامت بها حكومة سويد.

فقد حددت سويد بيع الخمور، وجعلت الحاني – البائع للخمر في الحانة – موظفاً حكومياً له حق الامتناع عن البيع إذا وجد أن الشارب قد ثمل، كما جعلت بيع الخمور بالبطاقات؛ ثم ماذا؟

ثم انتهت إلى أن جميع هذه القيود لا تجدي؛ لأن شرب الخمر يستطيع الحصول عليها بألف طريقة وطريق، فألغتها، وأصبحت الخمور مباحة لجميع أفراد الشعب.

وهنا ذكرى؛ ففي حوالي سنة ١٩٢٠ كان شبابنا قد انغمسوا في الكوكايين المدر المهلك، فسنناً قانوناً لعقوبة المتجرين به. وكان الأجانب المقيمون في بلادنا لا يزالون يستمتعون بامتيازاتهم، وكان من هذه الامتيازات لا يعاقب أحد منهم على عمل لا يُعد جريمة في بلاده. ووجدنا – وهنا العبرة – أن كثيرين من الأجانب المتجرين بالمخدرات عندما لا تتمكن معاقبتهم؛ لأن بلادهم لا تُعاقب على هذه الجريمة. ولماذا لا تعاقب؟ لأن مواطنיהם يشربون الخمور ويقنعون بها ولا يعرفون المخدرات الأخرى، ولذلك لم تنص قوانينهم على عقوبة لتجارة لا يعرفونها.

هنا تجربتان تحثان على التفكير ثم على العمل.

إنني أعرف، بل أؤمن، بأن المستقبل سيؤيدبني. ولكن لماذا لا نبدأ من الآن؟ مع كل ما ذكرت عن الخمور والمخدرات أحتج إلى أن أذكر أيضاً للقراء أن الرغبة فيها جميعها تعود إلى مركبات وتوترات، وأن الرجل السليم، الذي يسلك في الحياة سلوكاً سليماً ينأى به عن القلق والخوف، وإحساس النقص (بجميع أنواع النقص)، هذا الرجل لا يحتاج إلى خمور أو مخدرات، بل أحياناً لا يحتاج حتى إلى القهوة والشاي والتدخين. وكل منا يعرف الناس الذين امتازوا بهذه الميزة.

ولكن أكثرنا ليس على هذه الحال.

ثم لست أنكر أننا نستطيع أن نعالج، بالتحليل النفسي، المدمنين على الخمور أو المخدرات، وذلك بأن نستخرج منهم العقد الدفينة التي حملتهم على أن ينشدوا السعادة بالنسیان؛ أي الهروب، وبأن نحملهم على أن ينشدوا بالوعي والتعقل. وفي مجتمع سليم لا يبعث على القلق والخوف نستطيع أن نجد السلام النفسي يعم جميع الأفراد. ولكن للأسف لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا الاقتئاني القائم على المباراة القاتلة التي تولد الغيرة والخوف، لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا هذا سليم.

والخمور هي أقل المخدرات إيذاء للنفس والجسم، وجميع المدمنين يشربونها في اعتدال، وبأسلوب متبدن لا يجعل منهم حيوانات، ولا يعتم عقولهم ويفسد نفوسهم كما هي الحال في أولئك الذين يتناولون المخدرات. وجميع الأمم التي عرفت الخمور والمخدرات أجازت الأولى ومنعت الثانية. وقد فعلت ذلك حكومتنا، لليقين الثابت بأن الخمور، مهما تجاوز مستعملوها حدود الاعتدال، فإنهما لا يزالون أقل تعرضاً لخطرها من أولئك الذين يستعملون المخدرات. نحن نبيح بيع الخمور في مصر، ولكننا نعاقب بالسجن المؤبد أولئك الذين يبيعون المخدرات. ونحن نبيح لكل مصري تناول الخمور إذا كان قادرًا على أداء أثمانها الباهظة، ولكننا نعاقب من يستعمل المخدرات بالسجن خمس أو عشر سنوات. وفي هذا برهان واضح على أننا نخشى خطر المخدرات ولا نخشى خطر الخمور. ولا أعتقد أن هناك من لا تهز ضميره هذه العقوبات القاسية التي يلقاها المتجرون بالمخدرات ومتناولوها. وكان يمكننا أن نستغنى عنها لو أن الخمور كانت رخصصة متاحة للحشاشين والأفيونيين. وليس هذا رأيي وحدي وإنما هو رأي جميع رجالنا الذين يكافحون المخدرات في بلادنا أيضًا.

كيف نتعلم السعادة

نتعلمها بأن نسعد الناس كيما نسعد نحن. وذلك الذي يستهلك سعادته دون أن يشرك فيها غيره لن يحصل على كل ما يستحق أو يطلب منها؛ ذلك لأن الأنانية وحدها لا تسعنا، إنما الذي يسعدنا أننا نحس أننا مشتكون مع غيرنا.

وقد يكون هذا الاشتراك شخصياً حين يسعدنا مثلاً أن نسعد أمهاتنا أو أبناءنا أو أصدقاءنا، أو حين نسعد طفلاً يتيمًا أو أسرة بائسة. ولا تزال في ذهني صورة سيدة أرملة مات زوجها ولم يعقب، فتبنت عملاً خيرياً هو العناية بمعهد للصبيان اليتامي كانت تهتم بهم وتنعم وتعرب من أجدهم كما لو كانت أمهم التي تسعد بسعادتهم، وكانت سعيدة حقاً.

وهناك نوع آخر من السعادة لا نعرف فيه شخصاً معيناً أو أشخاصاً معينين نسعدهم ونسعد بسعادتهم، وذلك حين نحس اندغامنا في قوميتنا ووطتنا، أو فيما هو أكبر من ذلك؛ أي الإنسانية. فنخدم مبدأ وندعو إلى مذهب، ونكافح وننعتب لأننا قد رسمنا حالاً مثلي للوطن أو للإنسانية نهدف إلى تحقيقها، ولا نبالي ما نلقي من آلام في سبيلها. هذه هي السعادة الكبرى التي لا نبالي أن نفقد سعادتنا الصغرى في سبيلها. فالهموم الشخصية مثل الإثراء، والنجاح، وتحقيق الملذات الشخصية، كل هذا لا قيمة لها عندئذٍ في جنب هذا الأمل الكبير الذي يغمرنا.

وعندما نصل إلى هذه الحال العالية يكون لارتفاع الصين، أو انتصار السلام، أو ظهور دواء للسرطان، أو هزيمة الجهل والفقر والمرض في مصر، أو زوال الاستعمار، أو نحو ذلك، ما يملأنا سعادة لا تُقدّر بجانبها أية سعادة شخصية أخرى، وعندئذٍ نفك بالعقل العام والاعتبارات العالمية.

ولكن يجب أن نتدرّب على السعادة منذ طفولتنا، التدريب الذي يفهم منه الصبي والشاب كيف يتجاوز شخصه إلى أمه، ثم بعد ذلك يتدرّب على سعادة أرفع وأكبر، وهي كيف يتجاوز بحبه أسرته إلى وطنه، ثم إلى العالم؛ أي إلى الإنسانية.

أَلْفُ الدُّوْسُ هَكْسِلِيُّ الْأَدِيبُ الْإِنْكَلِيْزِيُّ (الأُمَّرِيْكِيُّ الْأَنَّ) كَتَابًا عَنِ الْمِيسَكَالِيْنِ.

والميسكالين مادة مخدرة تُستخرج من جذور الككتوس الذي نعرف من أنواعه في مصر «التين الشوكي»، ولكنه يختلف عن المخدرات، كما يزعم الدُّوْسُ هَكْسِلِيُّ الْأَدِيبُ الْإِنْكَلِيْزِيُّ الْأَنَّ جَرَبَه جملة مرات.

ذلك أن الماء المخدر تخدّر عقولنا وأجسامنا معاً، أما الميسكالين فيخدر الجسم فقط، ويجعل العقل على يقظة كبيرة، ولكنها ليست يقظة التفكير المنطقي وإنما هي يقظة وجودية حتى لنرى النور أضوأ، والزهر أنسُر، والإحساس بالرُّضى كاملاً، وهذا مع استرخاء يجعلنا سعداء.

ونعني هنا السعادة المصنوعة المجلوبة، بل السعادة الزائفة.

ويقول الدُّوْسُ هَكْسِلِيُّ إن هذا الميسكالين يمتاز على جميع المخدرات والخمور من حيث إنه لا يطفئ العقل، وأيضاً لا يضر.

وواضح أن الرجل السعيد حَقّاً، الذي تتبّع السعادة من قلبه كما لو كانت إشعاعاً نفسيّاً، لا يحتاج إلى الخمور أو المخدرات أو الميسكالين. وكلنا يعرف هؤلاء السعداء الذين لا يحتاجون حتى إلى فنجان من القهوة أو الشاي، فضلاً عن المخدرات أو الخمور. وقد كان برنارد شو كذلك.

كان كذلك لأنه كان سعيداً بأن أسعد غيره. وكان سعيداً أيضاً بأن اعتنق الاشتراكية منذ شبابه وجعل منها كفاحاً لخير الإنسانية. فأصبح إطار نفسه العالم الكبير، وليس شخصه الصغير. كما أنه كان فناناً يلتذ صناعته ولا يسامحها.

وكثيرون منا قادرون على ذلك إذا تدرّبوا على الحب والخدمة، وإذا اعتنقوا المذاهب الإنسانية التي تغمر نفوسهم بل تغنى فيها نفوسهم، ولكن منا من يعجزون عن ذلك أيضاً؛ ولذلك يلتجئون إلى الخمور أو المخدرات.

كثيراً ما أتأمل السعداء الذين – كما قلت – تتبّع سعادتهم كما لو كانت إشعاعاً من نفوسهم، فأجد فيهم هذه الصفات التالية:

إنهم غير أنانيين؛ فإن الأناني الذي يتعب كي يثري ويقتني ليس سعيداً؛ لأنّه في الأغلب يحيا في جوٍّ من البغض يثير في نفسه أيضاً بغضّاً. فلا يجد ذلك الحب الذي يستمتع

به غير الأنانيين. ثم إن أنانيته لا تعرف حدوداً، فهو دائم الاهتمام والهم، يحاول الزيادة في الاقتناء، مثل أحد الأشخاص في قصة لتولستوي ما زال يقتني ويشري حتى خطر له أن يخرج كي يعرف حدود أرضه الواسعة، فشرع يسير فيها، ويشتري زيادة عليها كلما استراح في مكان منها، حتى مات قبل أن يصل إلى نهايتها. وقل أن تجد رجلاً ثرياً مفروطاً في الثراء في عصرنا وظروفنا إلا وهو مريض نفسيّاً وجسمياً؛ لأن مشاكل الإثراء كثيرة مرهقة لا يتحملها من يف्रط في مطامعه.

ولكننا نجد السعداء حيث نجد الحب للغير، وحيث الإنسانية والفن والرسالة، فالآم التي تحب ابنها سعيدة بهذا الحب، ولكنها تبتئس إذا جعلت هذا الحب أذانية، لأن ابنها بعض مقتنياتها التي تخشى ضياعها حتى ليعود اهتمامها به همّا وقلقاً، وهي تحدد طاقاته وتحول دون نموه النفسي، والعقل، بهمها وقلقها.

والفنان سعيد بفنه؛ لأنه يرتقي به ويجد فيه الجمال أو الكفاح المنشود. وصاحب الرسالة سعيد برسالته، وهو يكبر بها وينضج مهما استهلكت من قواه ومهمما عانى، من فقر وحرمان سببها.

ورجال المذاهب والمبادئ سعداء أيضاً؛ لأنهم يهدفون منها إلى خير الإنسانية.
وخلال هذه القول أننا حين نهدف إلى السعادة يجب أن نتجاوز نفوسنا وأشخاصنا
وأننا ناتنا إلى ما هو أعلى منها جميعاً.

الرقص

لكل إنسان شخصية جنسية هي دليل مكانته من الجنس الآخر. فقد يكون أحدهنا مربوكاً خجلاً في حضرة المرأة – أو العكس – أو قد يكون لبقاً رشيقاً. وهناك احترام أو احتراف شخص بهما المرأة أو الرجل لسلوك أحدهما في حضرة الآخر. والرجل الذي يطمح إلى شخصية محترمة لا يمكنه أن يرضى ب موقف الخجل والاضطراب والخross في حضرة الجنس الآخر؛ لأنه يحس أن له كرامة جنسية وأنه يحتاج إلى احترام المرأة أيًّا كانت، غريبة أم قريبة كهلة أم شابة. وهو حين يحس الاحتراف لنقص في شخصيته يضطر إلى الانزواء الذي يؤثر في نجاحه واتجاهه بل أحياناً في اتجاهه الجنسي.

وحالنا في مصر سيئة كل السوء من هذه الناحية، وعواقب هذه الحال أسوأ؛ فإن الانفصال العام بين الجنسين يحيلنا في بعض الظروف إلى أجلاف في الكلمة والإيماءة والسلوك العام. وقد يكون الشاب من أقوم الناس أخلاًّا وأسماهم رقياً، ولكنه – للانفصال السابق مدى حياته – لا يعرف كيف يقعد إلى فتاة. فإذا حان وقت الخطبة للزواج عمَّه اضطراب وخجل يجعل الفتاة تحقره وتؤثر عليه مَنْ هو دونه في الأخلاق والرقي؛ لأن لها شخصية جنسية حسنة، أو قد يحدث العكس؛ أي يكون النقص في الفتاة حين تقعده إلى خطيبها فيرث فيها جمالاً، ولكنه الجمال الخشبي؛ لأنها صامدة ساكنة قد شملها الخجل والجمود.

ويجب أن نصرح هنا بكلمة مؤلمة، هي أن هذا الاضطراب الذي يعرو الشاب أو الفتاة وقت لقائهما إنما ينشأ من الانفصال التام السابق؛ لأن هذا الانفصال قد ملأ الذهن في الأغلب بخواطر تناسلية. ذلك أنه حين تندفع العلاقات الاجتماعية بين الجنسين، فلا يكون لقاء في حفل، ولا مناقشة في ضيافة، ولا جدال في نادٍ، ولا معاملة في تجارة ولا مؤانسة في زيارة، ينحدر الخيال إلى الأصول البيولوجية الأولى. فالرجل ذكر فقط. والمرأة أنثى

فقط. والاضطراب يحدث عند المجتمع، عقب الانفصال السابق الطويل، فيكون — أي الاضطراب — برهاناً على هذا الخيال البيولوجي التناصي الذي لم يجد قط ما يهدى من علاقات اجتماعية أخرى.

ويجب أن نعالج هذه الحال السيئة في مجتمعنا بالتعليم الابتدائي المشترك، فلا تكون مدارس خاصة للبنين وأخرى خاصة للبنات، بل يتعلم كلاهما في مدرسة واحدة، تقع في البنت إلى جنب الصبي. ونستطيع أن نجعل هذه الحال عامة في المدارس الابتدائية وفي الجامعة. أما المدارس الثانوية فلا بأس من الفصل؛ لأن ثورة المراهقة تجعل الاجتماع خطراً، كما يجب أن نُكثِّر من اجتماعاتنا المنزلية، وفي النادي الرياضي أو الثقافي، وسائر المجتمعات التي يجتمع فيها الجنسان، فينشأ عندهنا جو متمنٍ يزيل عن الشاب والفتاة ذلك الارتباك أو الخلط الذي يسودهما في بعض بيئاتنا في الوقت الحاضر، وبذلك تتكون لهما الشخصية الجنسية الممتازة، فالرشاقة، والصراحة، والسعادة.

ولكن إذا كانت الحال قد بلغت في السوء مدى بعيداً فإنها عندئذ تحتاج إلى علاج حاسم، وهذا العلاج هو الرقص الذي يُعدُّ مرانة ناجعة لإزالة «مركب النقص» الناشئ من رذائل التربية الانفصالية السابقة. فالشاب الخجول المرتبط عندما يتعرّن على الرقص — ويجب أن يكون التمرين طويلاً ومختلفاً — يجد أنه قد حقق في نفسه تغييرًا سينولوجيًّا، وأنه يحس كرامة جنسية جديدة وأنه رشيق لبقة، وكل هذا مما يعينه على النجاح في الحياة المدنية؛ لأن الشاب الذي يحس نقصاً في كرامته الجنسية يحس أيضاً مثل هذا النقص في كرامته الاجتماعية، ويبيقى على الدوام قلقاً قد يقع في شذوذات جنسية.

والرقص — زيادة على ما ذكرنا — من أَنْجع الوسائل لمعالجة هذه الشذوذات الجنسية؛ لأن الرجل الذي يرقص مع امرأة يتوجه الاتجاه الجنسي الصحيح بلا انحراف أو زيف؛ إذ من غير المعقول أن يلتفت إلى غير المرأة في الخيال أو الواقع.

وهذا كسب كبير لكثير من الشبان الذين تقدمت بهم السن في العزوبة فزاغوا وانحرفوا. وفي مصر يشيع الانحراف الجنسي أكثر مما يشيع في أوروبا للانفصال القائم بين الجنسين؛ لأن الخيال لم يُدرَّب على الجنس الآخر بالمعشرة السابقة والألفة الطويلة، فهو يشطح ويُشند. ونحن حين نأتي بالشباب الشاذ ونحمله على الرقص مع الجنس الآخر — وليس هذا سهلاً — نحاول أن نرده إلى الهدف الجنسي الصحيح، وهو عندئذ يكسب شخصية جديدة يُسْتَرَّ بها صحته وكرامته الجنسيتين معاً.

الرقص

وفي طورنا الاجتماعي الحاضر قد يشق على العائلة أن تناصح لفاتها بالرقص، ولكن إذا كان هذا الرقص في العائلة أو في النادي المحترم فليس هناك أي ضرر من هذه المرانة المفيدة لتصحيح شخصيتها المريضة.

